الفهرس

صحيفة

ثمن العدد ٢ قرشان صاغاً

الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز | الإدارة | رئيس التحرير المسئول
الدكتور أحمد أمين بك | | محمد عبد الواحد خلاف بك

١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٩٧٦٩

العدد ٥٩٣ — الاثنين ٢١ من رجب سنة ١٣٦٩ — ٨ من مايو سنة ١٩٥٠ — السنة الثانية عشرة

من انطباعات الشرق العربي :

عدن والحياة الاقتصادية

للأستاذ أحمد طه السنوسي

قبل عام ١٨٣٩ م لم تكن عدن سوى بلدة صغيرة يقطنها مائتا أسرة من أسر الصيادين الذين اتخذوا بيوتاً لهم [illegible] صغيرة من الجيران والقش ، ويطلق العدنيون على هذه البيوت (العشش) ، وكان ذلك قبل أن يدخل الانجليز أرض عدن حيث كانت تحت الإدارة العبدلية التي تتخذ مقرها الرئيسي اليوم في سلطنة لحج .

ولعدن أهمية كبرى ، وذلك يرجع إلى أهمية موقعها الاستراتيجي وإلى مركزها التجاري العظيم ، فعلى كل باخرة تمر بالبحر الأحمر قاصدة أي بلد من بلدان هذا البحر أن تمر بعدن وتقف عندها وترسو في مينائها إذا شاءت ذلك .

وقد استغل الانجليز موقع عدن وأهميتها الاستراتيجية في الحرب الكونية الماضية ، وقد ساعدتهم هذه الأهمية على كسب المعارك التي دارت بينهم وبين جنود الإيطاليين في بلاد الصومال والحبشة وما جاورها ؛ إذ قد استطاعوا من عدن أن يشنوا غارات جوية شديدة على مراكز الإيطاليين الحربية في تلك المناطق من بلاد الصومال والحبشة ...

وبما أن عدن ميناء كبير فقد نجحت فيه التجارة نجاحاً كبيراً حتى صارت التجارة ظاهرة محسوسة مسيطرة عليه ، وقد اتخذ العدنيون [illegible] التجارة في الدرجة الثانية بعد ما قديم من الزمن .

وعدن جزء حي في جنوب الجزيرة العربية ، بل وفي الشرق العربي ، إذ يصل إليها كل يوم عشرات من الأناس ومئات من الناس ، وهذه الحركة الدائبة من الاختلاط بهؤلاء الوافدين تثير القرائح والشكوك مما يذكي النهضة الفكرية ويسير الحركة الدائبة في هذا البلد العربي الصغير .

والأسماك لها أهمية في عدن ، ومن أهم مناطقها ومصايدها فيها المناطق التالية : (البريقة — وأبين — والحرقة — وشقرة — والحور — وسيحوت) .

ولم تستطع عدن بعد أن تصدر الأسماك المحفوظة ، نظراً لأن الأهالي يستهلكون كثيراً من الأسماك العدنية ، ونظراً لأن صناعة تلك الأسماك العدنية لم يهتم بها العدنيون اهتماماً كلياً ، بيد أن المستقبل كفيل بإبراز هذه الناحية في الحياة الاقتصادية ، ومن المستحسن أن توضع مناهج خاصة بنشر بواسطتها الإرشاد والتوجيه لطرق الصيد الحديثة ولاستعمال الأجهزة الطازجة كأجهزة التبريد وغير ذلك ، ويتضمن أن

يعنى بهذا الأمر ، لأن فريقاً من الأهالي يعتمد على هذا السمك في حياته ومعيشته .

وليست عدن بلد زراعة ولا بلد صناعة ، اللهم إلا بعض الصناعات الطفيفة التي لا تعتبر عدن على أساسها بلداً صناعياً ، ولكنها إن لم تكن بلداً زراعياً ولا صناعياً فهي بلد تجاري ملاحي من الطراز الأول ..

وللملح أهمية كبيرة في عدن ، إذ تعتبر رابعة بلاد العالم في إنتاجه بعد الصين والهند واليابان . وأرض عدن صالحة للملاحة ، ويعزى ذلك إلى أنها شديدة الحرارة ، ولأن المياه العدنية تتمتع بوفرة الملح ، ولأنه ليس ثمة أنهار تصب الماء العذب في البحر فتخفض درجة ملوحته ، ثم لوجود الرياح الجافة التي تساعد على تبخر ماء البحر ، ولوجود التربة العدنية الصلبة التي تساعد على بناء أحواض الترسيب للملح ..

ويوجد إلى جانب الملح في المياه العدنية أملاح أخرى كسلفات البوتاسيوم وكلوريد المغنسيوم وكربونات الكالسيوم . ونتمنى أن يهتم أولو الأمر بهذه الأملاح ليستغلوها كما استغلوا الملح في الحياة الاقتصادية ، ولقد ظلت عدن عدة سنين تصدر هذا الملح إلى الهند و[illegible] واليابان وبعض بلاد الشرق ...

ومما يعطي عدن اليوم الأهمية الكبرى أنه ظهرت منابع البترول في الأراضي الحضرمية التي حولها ، كما يعطيها هذه الأهمية أن ما جاورها من محميات كثيرة تعتمد عليها في حياتها الاقتصادية كما تعتمد عليها في الحياة الأدبية والفكرية .

وإلى جوارها تقع (المكلا) تلك الميناء الحضرمي الكبير الذي اشتهر بالتجارة ، ولا غرو فقد عرف الحضارمة بالمخاطرة والملاحة والتجارة منذ فجر التاريخ ، حتى لقد وصلوا بسفنهم إلى أماكن بعيدة في الشرق الأقصى عبر المحيطات ؛ ويقول السيد محمد بن هاشم بن طاهر العلوي في كتابه (رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا) : « تزداد البواخر إلى المكلا القادمة من عدن والهند وأفريقيا وأوربا وجاوة أكثر من ترددها إلى الشحر ، وعليه فوارداتها وصادراتها أكثر من أختها ، وحركتها التجارية أقوى ، ويبلغ ما يصدر عنها يومياً من القوافل على وجه التقريب مائة وخمسين جملاً ، بينما الشحر لا يصدر عنها إلا نحو ثلث هذا القدر » .

والصلة الاقتصادية بين عدن وبين المحميات الجنوبية صلة قديمة ليست وليدة الأيام الحديثة فحسب . وتصدر المحميات إلى عدن الصمغ والسمن والبن فتنتشر هذه في الأسواق العدنية ، بل إن بعض الخضراوات تصل أيضاً إلى عدن من المحميات .

وتوجد قوافل تحمل أنواع الخضراوات تدخل في عدن من المحميات كل صباح ، ويفهم من ذلك أن أراضي المحميات صالحة للزراعة . أما الأراضي العدنية فغير زراعية ، ولا تنزل الأمطار فيها إلا في بعض الأحايين ، بل في فترات متقطعة ، والأمطار إن نزلت فهي ضئيلة ، بل ربما مرت سنون طويلة دون أن تسقط قطرة من هذه الأمطار ، ولكن كل هذا لا يمنع من أن تكون عدن ذات أهمية كبرى ، فهي ملتقى السفن كما أنها محطة كبيرة للتموين والتجارة .

وإذا اكتفت الحاجة العدنية بما يصلها من المحميات واليمن وبلاد الصومال ، يصدر الباقي إلى الأسواق الخارجية كأسواق الحبشة وجيبوتي وغيرها .

ولا ننسى أيضاً أن بعض الأشياء كالأقمشة على اختلاف أنواعها وألوانها والبهارات والتوابل والمواد الغذائية المختلفة والكماليات التي تصل عدن من الهند واليابان ومن بريطانيا والولايات المتحدة ، يباع في الأسواق العدنية ، بينما يهتم التجار المحليون بتصدير بعض هذه البضائع والمواد إلى الحبشة والمحميات واليمن وإلى بلاد الصومال لبيعها في أسواق مدن هذه البلاد .

كما أن التبغ الذي يصل إلى عدن من (المكلا) يباع بعضه في الأسواق العدنية ، وما يتبقى منه يصدر إلى أراضي الحجاز وإلى بعض المناطق الأخرى في الشرق ...

وتصدر عدن إلى المحميات واليمن بوجه خاص : الأرز والسكر والدقيق والأقمشة وبعض الكماليات الأخرى ...

وتتأثر الحياة الاقتصادية في كل قطر بالعملة ، ونحن لو نظرنا إلى عدن لرأيناها تتداول العملة المتداولة في البحر الأحمر وفي بلاد الحبشة والصومال ، وهي تقوم على الريال النمساوي القديم الذي انطبع عليه صورة الملكة ماريا تريزا ، وعلى أساس العملة الهندية التي تقوم على الروبية والآنة والبيزة ، والروبية تساوي بالعملة المصرية سبعة قروش

ونصف قرش ، وتساوي الروبية من الآنات ست عشرة ، والآنة الواحدة بها أربع بيزات ، وتتداول هذه العملة أيضاً الكويت والبحرين وعمان والمحميات وحضرموت وغيرها ...

ويقول صاحب كتاب (تاريخ ثغر عدن) : « ومادتهم — أي مادة عدن وأهلها — من الهند والسند والحبشة وديار مصر ، ومأ كولهم الخبز وأدمهم السمك ، غاية عمل نسائهم الحيفلع ، ورجالهم تبيع العطر والقماش ، وبناء دورهم مربعة كل دار وصحنها طبقتان ، الأسفل منهما مخازن ، والأعلى منهما مجالس ، ومنازلهم بالحجر والجص والخشب والملح » .

ويقول أيضاً صاحب هذا الكتاب : إن الأشياء التي لم يؤخذ عليها عشور هي : « الواصل من ديار مصر ، الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون الرقي والأشنان والقطارة وزيت الزيتون وزيت الحار والزيتون المملح وكل ما يتعلق بالنقل إذا كان قليلاً ، والعسل النحل إذا كان قليلاً ، والذي يجلب من الحبش في البحر ، والمليلج الزرق ، والأكراز ، والسمن ، والأطعام ، والأرز الكحل ، وهو الأرز ، والتمر ، والسمسم ، والصابون ، ومن البضائع التمر الكولابي ، والتمر ، وحطب القرنفل » .

.. والمرأة في عدن تشتغل ببعض الصناعات الصغيرة . ومن المستحسن أن نذكر ماجاء في كتاب (خواطر) للأستاذ حمزة علي لقمان ، إذ قال : « أذكر لكم شيئاً عن الأعمال اليدوية وغيرها التي يقوم بها بعض النساء العدنيات في بيوتهن لكسب معيشتهن وإعالة أطفالهن ومن يلوذ بهن أو مساعدة رجالهن في كسب الرزق ، وهي أعمال وإن تكن بسيطة لا تدر عليهم إلا ربحاً بسيطاً ، إلا أنها شريفة تدل على ترفع المرأة العدنية وعدم رضاها بأن تعيش عالة على غيرها ؛ ويقوم بهذه الأعمال النساء اللاتي فقدن أزواجهن أو أبناءهن أو عائليهن ، أو اللاتي يضطرهن الفقر إلى مساعدة رجالهن ، ومن هذه الأعمال : الخياطة والتطريز و (المشالة) ، وعمل مناديل الرأس المطرزة الوشاة والكوافي الوطنية التي يصنعها بين (الولايع) — وهو القطن ومفردها ولعة — وغير هذه من الأعمال التي تمت إلى الخياطة بصلة . ويقوم بعضهن بطبخ أنواع من المأكولات لبيعها في الأسواق والتي تجد إقبالاً من الناس » .

« ومن الأعمال الأخرى التي يقوم بها النساء ويشاركن فيها الرجال الدلالة (السمسرة) ، وكثيرات منهن يقمن بأعمال التجارة ، فيبعن الأقمشة والحوائج والعطر والصابون وكل ما يمت إلى التجميل وإلى النساء بصلة ، وللبعض دلالات يساعدنهن في القيام بزيارات البيوت وعرض بضائعهن النسوية » . « ويقوم بعضهن بصناعة الحبال والسارف والمكانس ومراوح اليد وسجاد الصلاة والهدم ، وهذه جميعها تصنع من سعف النخل الذي يجلب من البلاد المجاورة التي يكثر فيها النخيل » . والسارف نوع من الحصير يوضع تحت أواني الطعام ساعة الأكل ، والهدم معناه ...

... ما سلف نستطيع أن نقف على تفاصيل الحياة الاقتصادية في عدن ، فنجد أن أهم شيء هنالك هو التجارة ! ... النزعة المادية في نفسية الشعب العدني . ولكنا نجد هذه النزعة بادية في الرجال والشيوخ ، أما الشباب الحديث ، فقد بدت أمام ناظريه أمور ونزعات أخرى أهم من النزعة المادية ، فقد انصرف إلى الوعي القومي والحياة الأدبية من علم وتثقف وصحافة ورياضة بدنية إلى غير ذلك . والملحوظ أن الحياة الأدبية ستسمو في المرتبة على الحياة الاقتصادية ، ومما يساعد النهضات الحديثة على النمو السريع والانتشار الكامل في عدن أن عدن صغيرة في حجمها وأن عدد سكانها عدد طفيف ، وقد بلغ في إحصائية عام ١٩٤٨ نحو ٨٦٠٠٠ نسمة .

والذي لا شك فيه أنه كلما تقدمت الأيام وانصرم الزمن ازداد العدد واتسع الحجم والمساحة وانصرفت الحياة أكثر في النهضات والتأثرات الحديثة ، وعلى ذلك تنظر النهضات الاقتصادية والأدبية والاجتماعية لعدن رويداً رويداً ...

أحمد علي الشرمي

في ضوء الصباح

حامد سعيد

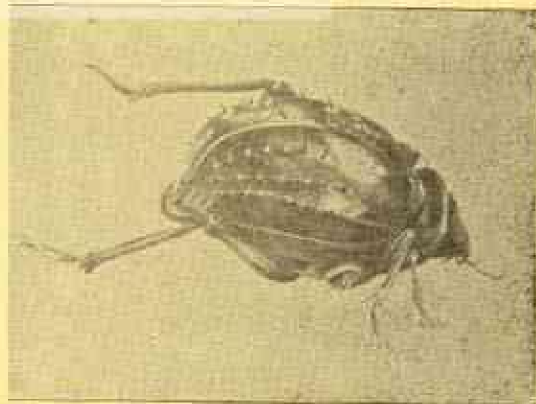
للدكتور زكي نجيب محمود

هناك ، على مبعدة نائية من المدينة وصخبها ، وفي أحضان النخيل المتشابك المتعانق ، أقام هذا الفنان المتمرد لنفسه داراً من الطين ، تراها بقبابها وسط الزرع ؟ فيخيل إليك أنك داخل من مهبط وحي من أولياء الله ، تتعثر به قداسة روحه من مطارح العمران ، وتدخل الدار فيزداد هذا المعنى شيوعاً في نفسك ، منذ تنحني راكعاً لتدخلها من باب وطيء ، إلى أن تدور في قبابها القليلة البسيطة المترعة بالروح في كل شبر من أرضها وجدرانها وسقوفها ... ويودعك الفنان وزوجه الفنانة ، وكأنهما ملكان طاهران ، قد نظرا إليك نظرة الإشفاق ، أن تركت هذا ركناً معموراً بالروح والفن ، لتعود إلى [illegible] الأرض والهواء بكل ما تضيق له الصدور وتكتئب النفوس .

أنفق هذا الفنان المتمرد النفور مدائننا وشوارعنا وبيوتنا وأسواقنا وموائدنا وما كلنا ومشاربنا وأطعمتنا ، ليعيش هو وزوجه في تلك العزلة النائية ، فينصرف إلى الطبيعة يستمد منها الحياة غزيرة دفّاقة ؛ واسمع له يحدثك في هدوئه العجيب الأخاذ ، كيف تملأ الطبيعة في كل ركن من أركانها بما تهتز له النفوس الحية اليقظى فتنة وإعجاباً ؛ ألا تحسّ [illegible] عن هذا الحسن ، وهذه الشجرة ، وتلك الشجيرة ، وهاته الحشرة ؟ أنظر إلى هذه الحشرة يوماً ويوماً وأياماً ، تطالع فيها كل يوم جديداً من ترتيب وتنسيق ونظام وجمال وجلال ، سبحانك اللهم [illegible] !

وفي هذه اللفتات إلى ما يغفله الناس صغاراً تُرّهاته ، وما يرى فيه الفنان موضعاً للفتنة ومصدراً للسحر ؛ ثم فيما بين كائنات الطبيعة من وحدة وإخاء ، برغم ما يبدو فيها من تباين وخلاف ، يدور « حامد سعيد » بفكره وفنه ، وعلى هذا الأساس يقيم مدرسته ، وبهذا المبدأ يعلّم حوارييه .

وأين عسى هذا الفنان المصري الصميم حساً وروحاً ، أن يجد مصدر إلهامه ؟ عند أجداده القدماء ، عند المصريين الأوائل ، فتراه مع تلاميذه في المتحف المصري ينظرون ويتأملون ويستوعبون ، ليحيوا روحاً ،



حشرة جرارة
رسم الأستاذ محمد [illegible] شحاته (من مدرسة حامد سعيد)

ثم يعودون إلى أوطانهم ليصبوا أرواحهم الترعة آيات من الفن الجليل .

ويعبر هذه الجماعة هو تمثال « منحوتر » ! أنظر إليه ، كيف اتحد فيه الإنسان بالحيوان والطبيعة ؛ هـذا إنسان واقف تحت عنق البقرة وكأنه جزء منها ، وهذه بقرة لها قرنا ثور ليشمخ عنده كل تفريق بين ذكور الطبيعة وإناثها ، ثم هذه هي الشمس قد استقرت بين القرنين في التمثال والمجسم ؛ بهذه العين ينظر الفنان والأطفال إلى الأشياء ، فيرون الطبيعة كلاً واحداً لا تجزئة فيه ، وهـذا الشكل ماثل في كل جزء كائناً ما كان ؛ في هذا الغصن الجاف روح الطبيعة كلها .

وفي هـذه الصدفة الملتوية سر الكون كله ! أنظر إلى هذه الصدفة الملتوية التي قد صادفتك ملقاة على رمل الشاطئ فلا تعيرها التفاتاً ! تأمل أي ركن شئت من أركانها ، تر فيه الثنايا والخطوط والتعاريج الناتئة كأنه أنغام لحن للسيمفوني ! ثم اجمع هـذه الألحان بعضها إلى بعض ؛ تجد في الصدفة الملتوية الملقاة على رمل الشاطئ بناء موسيقياً كاملاً ، قد يشغلك التفكير فيه ، وتتبع أجزائه وثناياته وانسياقها ، يوماً وأياماً ؛ وذلك في الطبيعة العامرة !! .

أو انظر إلى جذع هذه الشجرة ، التي قد تفيأ ظلها وأنت لا تدري ما هي ؛ أنظر إلى هذه الأجزاء الناتئة فيه ، كأنما قد تعاقد كل منها مع أخيه على أن يكون له مؤازراً وظهيراً .

* * *

وزرت طفلة صغيرة في دارها الثانية ، وزرت المعرض الذي أقامه

رسوم الأطفال في متحف الفن الحديث ؛ فعرفت معنى جديداً لأشياء كنت قرأتها ، وكنت ظننت أني فهمت معناها !! لقد كنت قرأت فيما قرأت ، هذه الفقرة الآتية في « يوبانيشاد » — الكتاب الهندي المقدس — التي عبّر بها الهنود عن عقيدتهم في وحدة الوجود ، وفي أن الكائنات كلها تعبير عن إله واحد قهار ، فأضيئت لي اليوم بضوء جديد :

« لم يشعر بغبطة أدنى ذي بعد ، لأن واحداً وحده



منحوتر

لا يشعر بغبطة ، فطلب ثانياً ، وكان في الخلق ذا حجم كبير ، حتى ليعدل جسمه رجلاً وامرأة تعانقا ، ثم شاء لهذه الذات الواحدة أن تنشق شقين ، فنشأ من ثم زوج وزوجة ، وهكذا تكون النفس الواحدة كفلقة مشطورة ...

وهذا الفرع تلوذ الزوجة ؛ وضاجع زوجته وبهذا أنسل البشر ، وسألت نفسها الزوجة قائلة : « وكيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه ، فلأختف » ، واختفت في صورة البقرة ، فانقلب هو ثوراً ، وزاوجها حقاً ؛ وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية ؛ فاتخذت لنفسها هيئة الفرس ، [illegible] والفرس ، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء ، مهما تنوعت واتخذ لنفسه هيئة الحمار ؛ ثم أصبحت هي أتاناً ، [illegible] الذكور والإناث ، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث فأصبح هو حماراً ، وزاوجها ، [illegible] هو حقيقة الأمر ، قائلاً : حقاً أني أنا الخالق ؛ واتخذت عنزة ، فانقلب لها تيساً ، واتخذت نعجة ، [illegible] هذا الخلق كله ، لأني أخرجته من نفسي .. وهكذا ثمة وانقلب لها كبشاً ، وزاوجها حقاً ، وولدت لها الماعز [illegible] الخلق » .

[illegible] — رسم الأستاذ محمد [illegible] عبد الحميد (من مدرسة حامد سعيد)

ولكن « حامد سعيد » لم يقف عند الحيوان وحده في تصوره لوحدة الوجود ، فأضاف إليه النبات والطير والحجر ، ثم ، نهجت معه جيداً لوحدة الوجود بعد زيارتي لهذا الدار العجيب ، وآمنت بصدق ما قاله القديس برنار : « إن ما تعلمته من العلوم الدينية ومن الكتاب المقدس ، قد عرفته من الغابات والحقول ؛ فليس لي من معلم سوى أشجار الزان والبلوط ... إن الشجر والحجر ، ليعلمانك أكثر مما تتعلمه من شفتي الحكيم ... » .

● ● ●



جذع شجرة — رسم الأستاذ محمد [illegible] (من مدرسة حامد سعيد)

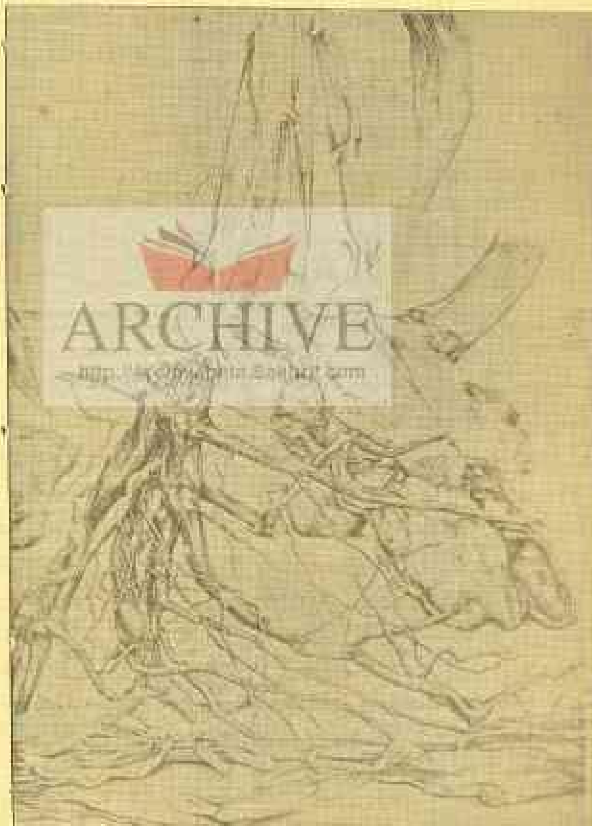
ليس من عجب بعد هذا كله ، أن ينقل حامد سعيد رسومه ورسوم تلاميذه يعرضها في لندن ، فيكتب فيها « هربرت ريد » — وهو في انجلترا إمام في علم الفنون — ما يلي :

« ... لما طُلب إليّ منذ أسابيع أن أرى نتاج طائفة من الفنانين المصريين .. ذهبت لا يحدوني شيء من رجاء عظيم ؛ فما أكثر ما خاب رجائي فيما مضى ، وأنا الناقد الذي في مثل هذه السن وهذه الخبرة ... فآخر ما كنت أتوقعه ، أن أرى أصالة حقيقية ... لكنني ما كدت أبصر رسمين أو ثلاثة من رسوم الفنانين المصريين حامد سعيد ، حتى أدركتُ أني إنما أرى فناً أقل ما يقال فيه أنه لا ينساق وراء الأساليب الجارية ، فهو فن فيه من صدق الفنان ما يلزمك إلزاماً أن تقف له معترفاً به ؛ وليست كلمة « الصدق » بالكلمة التي تجري هذه الأيام على اللسان إذا ما أردت وصفاً لشيء مما ينتجه الفن السائد ؛ لكنها أول كلمة ترد على ذهني وأنا ماثل أمام رسوم بلغت مدى بعيداً من الإخلاص — لا أقول إخلاص الفنان للطبيعة نفسها ، بل إخلاصه في إخراج مواقع الطبيعة من نفسه ...

... وإن سر الأصالة في هذه الرسوم ، وما يخلع عليها هذه القوة التي تميّزت بها ، هو الفلسفة الكامنة وراءها ... » .

ولو قد زار الناقد العظيم « هربرت ريد » حامداً في بيته الذي نأى به عن العمران ليزداد قرباً من أحضان الطبيعة لأضاف إلى قوله بعبارة أخرى ، هي : وسر الأصالة في هذا الفنان العجيب ، وما أضفى عليه روحاً عجيباً تفرد به ، هو الفلسفة الكامنة وراء حياته التي يحياها .

زكي نجيب محمود



الأرض الرابية (تصوير السيدة آل سعيد)

من ضوابط السـلوك

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

كنا ثلاثة ألف وباء وأنا . أما ألف فرجل في قمة الشباب ، أتم ثقافته الجامعية بمصر ، ووصل في دراسته العلوم إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه شاب في سنه . وكان يصح أن يكون في طليعة من ترسلهم الحكومة في إحدى بعثاتها إلى الجامعات الغربية لولا قيام الحرب . فبقي بمصر وصار زوجاً وأباً وشعر بتبعات الزوجية والأبوة ، وصار موظفاً وزكرت حياته المهنية فشعر بأهميته وتبعات المهنة . وتجاوز تفكيره الاجتماعي فلم يَعْدُ حدود البيئة التي يعيش فيها . وقد وفد منذ عهد قريب إلى إنجلترا في بعثة عملية — أو على الأصح اجتماعية عملية — ليزور معامل بعض الجامعات ، ويتصل ببعض الأساتذة ، ويستمع لبعض المحاضرات ، ويسير في الشوارع والميادين ، ويعرف كيف يعيش الناس ويتحدثون ويناقشون ويختلفون ثم يتفقون أو لا يتفقون .

وأما باء فرجل قارب الستين ؛ يبدو هذا في رأسه الأصلع وتجاريب وجهه ، أقل مما يبدو في حديثه عن تجاربه ومعارك الحياة التي خاض غمارها . جاء إلى إنجلترا في باكورة شبابه مغامراً يبغي المشروعات ، ينشد الغنى . وهو أحد المصريين القلائل الذين غامروا وتركوا بلادهم الرخية الهادئة ، يبحثون عن حياة فيها شيء من الكفاح الممتع ؛ فكافح وكوفح ، واغتنى وافتقر ، وكسب وخسر ، وجاع وشبع ، حتى صادفه التوفيق فاستقر في هذه البلاد ناجحاً في مشروعاته ، راضياً بما أصاب من آمال . وهو لهذا رجل قديم العهد بالحياة الإنجليزية يتحدث عنها حديث الخبير الذي يشقها . وهو يعتقد أن الحياة هي المدرسة الحقيقية ، وأن النجاح في الجامعة ليس ضماناً للنجاح في ميدان العمل ، وهو يؤمن بأن تربية الواقع هي التربية المجدية . وقد كوّن لنفسه فلسفة بحماسة تبدو في حديثه ومناقشاته ، وفي سخريته بالآراء النظرية .

أما أنا فوسط بين الرجلين ؛ عشت في إنجلترا قبل الحرب الأخيرة وأعيش فيها الآن . ولهذا أعد نفسي مخضرماً إذا قورنت بالرجلين .

جمعنا مجلس ، وبدأنا الحديث . قال ألف : إن سلوك هؤلاء الناس مدهش حقاً ! قلت : أيّ الناس تعني ؟ وأيّ سلوك أدهشك ؟ قال : الناس هم الإنجليز . وأما سلوكهم فهاك بعضاً مما شاهدته :

كنت واقفاً في الطابق الثاني من إحدى السيارات العامة ، وقد ازدحم الطابق بالركاب ، وجاء « الكمسارى » وكان في يده لفافة لتوزيع التذاكر على الركاب ولم يأخذ منهم الثمن . وأسرع هابطاً إلى الطابق الأول يشرف على الخارجين والصاعدين ، عندما وقفت السيارة . وتركت لأغادر السيارة مع المغادرين ، فما كان من الركاب الذين أخذوا التذاكر ولم يدفعوا الثمن ، إلا أن تقدموا كل واحد منهم يدفع ثمن تذكرته إلى « الكمسارى » ، يدفعه ويغادر . فانظر كيف يثق الكمسارى بالركاب ، وكيف يقدر الركاب هذه الثقة فيدفعوا الثمن دون رقيب أو حاسب !.

قال باء : ثم ماذا ؟ قال ألف : ثم ماذا ؟ ألا يدهشك هذا السلوك فتطلب المزيد ؟ هاك إذاً حادثة أخرى شاهدتها في السيارة العامة أيضاً . كان الكمسارى في الطابق الثاني حينما وقفت السيارة وثمّ جارى في الطابق الأول الخروج . فنظر إلى وناولني شلنين قائلاً : أرجو أن تسلمهما إلى

التكسارى عنا قتذكرة التى لم آخذها ، واختفى الآن .
فعل هذا وانصرف ! إنه ترك الأجرة وراءه ، وهو لو أراد أن ينصرف دون أن يدفع الأجرة وأن يراقبه «التكسارى» لفعل . ففى أى البلاد يحدث هذا السلوك ؟ .

قلت : إن هذه الظاهرة مألوفة فى انجلترا . وقد تكون غريبة حقاً على الأجانب الذين لم يشاهدوها فى بلادهم . ومع هذا فهناك أنواع أخرى من السلوك تستحق الإعجاب الخالق ، أذكر منها الحادثة الآتية .

نويت السفر من إحدى المدن الإقليمية إلى لندن ، فاشتريت من محل تجارى معروف فى تلك المدينة حقيبة خفيفة تصلح للسفر القصير . وهيأت فيها من المتاع ما أحتاج إليه ، وحشوت المتاع — كعادتى — بعدد من الكتب والمجلات . فلما وصلت محطة السفر ، وجاء القطار رفعت الحقيبة بحدة ، وأسرعت لأصعد فى مكان به . ولكن الحقيبة الثقيلة هوت على الأرض تاركة فى يدى يدها المقطوعة .

فلما بلغت لندن عرفت أن بها فرعاً لذلك المحل التجارى الذى اشتريت منه الحقيبة ، فاتصلت تليفونياً بالفرع ، وأخبرته بما حدث . فكان الجواب : « هات عنوانك ، وأفرغ حقيبتك . وسيكون عندك رسولنا ليأخذها ويعطيك واحدة جديدة بدلاً منها » . ولم تمض عشرون دقيقة حتى كان رسول المحل يطرق باب الفندق ، فسلم وتسلم .

ثم نظرت إلى الصديقين قائلاً : فما رأيكما فى هذا السلوك ؟

ابتسم باء ابتسامة ساخرة وقال : لست أجد فيما قصصته شيئاً غريباً . وكل ما حدث إنما هو سلوك طبيعى يتفق وظروف القوم الاجتماعية والاقتصادية . وقد يكون غريباً أن يسلكوا عكس هذا . إنى ... فقاطعه ألف بحماس قائلاً : إن كلامك هذا عام وغامض ، فأفصح ووضح . غريب أن تلجأ إلى النظريات وأنت رجل عملى .

قال باء : رويداً أيها ! فما عندى من نظريات إنما هو نتيجة دراستى العملية . إنى أعتقد أن السلوك الاجتماعى — كالظواهر الطبيعية — سلسلة من المقدمات والنتائج ، أو الأسباب والمسببات ، وأن هناك قوانين اجتماعية تضبط سلوك الناس وإن لم تشبه هذه القوانين فى دقتها ووضوحها القوانين الطبيعية . من ذلك ما أدهشك من دفع الركاب ثمن التذاكر دون أن يكون عليهم رقيب . فلهذا السلوك أسبابه الاقتصادية والاجتماعية . من هذه الأسباب أن كل راكب يستطيع اقتصادياً أن يدفع أجرة السيارة العامة لأن دخله يسمح بهذا ، ولأنه قدر نفقات معيشته — أو قدرت له — على أساس أن يكون ضمنها أجرة المواصلات . فلو لم تسمح اقتصادياته بدفع هذه الأجرة لحاول التهرب . وأنت تشاهد هذا التهرب من كثير من الركاب فى بعض البلاد ؛ إنهم حريصون على أن ينفقوا هذه الأجرة فى أشياء هم أشد حاجة إليها . فهم يحاولون السرقة ليسدوا حاجة عندهم ، ولو كان دخلهم كافياً ما حاولوا هذا .

[illegible] تجعل ظروف الفرد الاقتصادية الخاصة ضابطاً لسلوكه ومبرراً له . فأين إذاً دور الظروف الاجتماعية ؟ قال : نعم إن ظروف الفرد الخاصة تضبط سلوكه وتوجهه ، ولكنها قد لا تكون مبرراً لهذا السلوك ، فهناك اعتبار آخر هو اعتبار المجتمع . ولهذا يعاقب القانون من يهمل هذا الاعتبار أو ينساه . ومع هذا فسلوك الفرد خاضع أيضاً لشعوره الاجتماعى . خذ مثلاً الراكب الذى يقبض عليه التكسارى متهرباً من دفع الأجرة ، ويسوقه إلى الشرطة . إنه يشعر بخدش كرامته الاجتماعية ، وبأن المجتمع ينظر إليه نظرة شك وريبة . وبهذا يخسر ثقة الناس فيه ، وقد يخسر وظيفته التى يؤديها . إن هؤلاء الناس يعتقدون أن « الأمانة خير أساليب النجاح » Honesty is the best policy .

قال ألف : فلأسلم جدلاً بما تقول ، فكيف تفسر سلوك المحل التجارى ؟ فتدخل باء قائلاً : الأمر لا يحتاج لتفسير .

إن نجاح أي مشروع تجاري يتوقف على رضاء الزبون ؛ لأن في هذا الرضى دعاية كافية . والزبون الراضي لا يجود بنفسه إلى المحل فحسب بل يحضر معه زبوناً غيره . فلنتصور هذه العملية الحسابية البسيطة ، عملية تضعيف عدد الزبائن من يوم لآخر . وبهذا فإن الربح الذي يناله المحل التجاري من الزبون فإنه ينمو بنمو الزبائن . فإن كسب الزبون وإرضاءه إنما كسب مالي مهما قل الربح . إن الحقيبة مقطوعة اليد التي استردها المحل التجاري لا تكلفه إلا دراهم معدودات لإصلاحها ، ولكنها ضمنت له مودة الزبون ، لا بل والدعاية له . ومن الأمثلة الانجليزية التي تشير إلى حرص التجار على إرضاء الزبائن قولهم : « الزبون دائماً على حق The customer is always right » . وكم من محال تجارية أفلست لأنها حرصت على التكسب العاجل ، فنفر منها الزبائن .

قال ألف : هذا صحيح ، ولكني أعرف بعض المحلات التجارية الكبرى عندنا . وهذه لا تسمح بإرجاع البضاعة إليها — حتى ولو كانت سليمة — بعد أن تخرج من المحل .

فرد باء قائلاً : نعم ، ولهذا أيضاً أسبابه الاجتماعية والاقتصادية . أما الاجتماعية فإن الزبون الذي تشير إليه لم يصل بعد إلى المستوى الذي يدرك فيه من يرجع البضاعة ومن لا يرجعها ، وهو لهذا قد يلتمس أوهى الأسباب لإرجاعها ؛ كأن يزعم أنها غالية الثمن ، أو أن يعيبها شخص لا يعرف قيمتها . ففي مثل هذا المجتمع الذي لم ينضج فيه تقدير الزبون السليم للبضاعة التي يشتريها ، وشعوره بتبعة إرجاعها للمحل ، ينبغي ألا يباح الإرجاع . أما الاقتصادية فإن فتح الباب على مصراعيه لإرجاع البضائع إذا ظهر بها عيب ، في مجتمع كالذي أشرت إليه ، يكبد المحل التجاري خسائر فادحة . وقد يتلف الزبون البضاعة بإهماله ثم يحاول التخلص منها بإرجاعها .

قلت لباء : لقد لجأت إلى التعميم في حكمك هذا ؛ ففي بلادنا ولا شك — كما في انجلترا — الزبون الذي يدرك ما في إرجاع البضاعة إلى محلها من خسارة . ومثل هذا الزبون يتردد كثيراً في إرجاع البضاعة إلا إذا كان بها عيب واضح .

فضحك باء قائلاً : ومن هذا الزبون يقبل المحل التجاري البضاعة المردودة . ولكن كم عندنا من هذا النوع ؟

فقاطعه ألف محتجاً : نعم عندنا الكثير ، ونحن لا نقل في وعينا الاجتماعي وتقديرنا المسؤوليات عن أي بلد آخر .

قال باء : أرجو أن تجنبني المقارنة ، فلست هنا بصدد المفاضلة بين سلوك قوم وسلوك آخرين ، ولكني أريد أن أبحث السلوك بحثاً موضوعياً وأن أقرر أن سلوك أي قوم — أو فرد — إنما هو نتيجة عوامل اجتماعية واقتصادية ، وأنك إذا أردت أن تغير من هذا السلوك وجب أن تبحث عن هذه العوامل والظروف المؤثرة فتغير منها ؛ كأن ترتفع بمستوى التعليم عند الشعب وتعمل على زيادة دخل الفرد وتحسين مستواه المعاشي . عند ذلك لا يفكر في خرق القانون أو الخروج على المبادئ الأخلاقية السليمة .

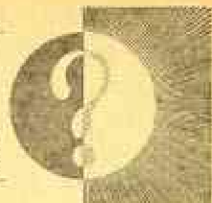
قلت : ولكن ثمة عوامل أخرى نفسية داخلية غير العوامل الاجتماعية والاقتصادية ، ولهذه أثر كبير في تكييف سلوك الفرد . فقد يعيش اثنان في ظروف اجتماعية واقتصادية متقاربة ومع هذا يختلفان في سلوكهما ؛ لاختلافهما في المزاج والطبع والخلق . قال باء : إنني رجل لا أعرف شيئاً عن العوامل النفسية ، ولا أفهم الفرق بين المزاج والخلق . وكل ما أعرفه أن هذه اصطلاحات يلجأ إليها المتفلسفون للتعمية إذا أعوزتهم الأدلة العملية من الحياة . قلت : لا بأس عندي أن أشرح لك ما تسميه « اصطلاحات قصد بها التعمية » . فتدخل ألف مقاطعاً يقول : رويدك أمهلني قليلاً فإني أريد أن أسأل الأخ باء : إذا كانت الظروف الاجتماعية والاقتصادية هي التي تضبط سلوك الناس فكيف إذاً تفسر انتشار حوادث الشبان الاعتدائية الفظيعة بيننا الآن ، وما تشكو منه الصحف من تفشي السرقات وحوادث القتل والسلب ؟

نظر باء إلى ساعته وقال : لم يعد لدينا من الوقت ما يسمح باستمرار الحديث . فلنقف اليوم هنا ، ولنستأنف اجتماعنا في يوم آخر تسمع فيه شيئاً عن العوامل النفسية والمزاج والخلق ، وأشرح أنا وجهة نظري في الأسباب الاجتماعية والاقتصادية لحوادث الشبان الاعتدائية الأخيرة .

ثم نهضنا نحن الثلاثة ، وودع بعضنا بعضاً .

([illegible]) عبد العزيز عبد المجيد

كيف



قصة كوبرنيكس

« إن الأرض ليست سجينة لا تتحرك ، بل هي حرة دائبة على الدوران تحملنا معها في مغامرتها الأبدية خلال الفضاء الشاسع لهذا الكون ... !! » (كوبرنيكس)

للأستاذ جمال الدين محمد موسى

أسماء مضيئة :

في الفترة ما بين سنة ١٤٧٣ وسنة ١٥٤٣ شهد العالم مجزرة بشرية هائلة وحركة تدمير عامة ، إذ كان هناك عدد من الغازين والقاهرين الطامعين الذين حاولوا أن يسيطروا على العالم وشيدوا على أشلاء [illegible] لانتصاراتهم .

ومن أولاء بيزارو ، وقيصر بورجيا ، وفرانسيس الأول ، وشارل الجريء ...

واليوم إن أحداً لم يعد يذكر أسماء أولئك الغازين ، ولكن أسماء ثلاثة رجال عاشوا في تلك الحقبة من الفوضى العسكرية ما زالت ماثلة في الأذهان خالدة في سجل الأيام ... وهي أسماء كولمبس ، ومارتن لوثر ، وكوبرنيكس ...

لم يكن أولئك من الغازين ، ولكنهم كانوا من الباحثين عن المجهول والمنقبين عن أسرار الطبيعة ؛ فلقد اكتشف كولمبس قارة جديدة ، ورسم لوثر طريقاً جديداً إلى الله ، كما وجد كوبرنيكس الحل لمشكلة الوجود ...

مشرع السماوات :

إن أصل كلمة كوبرنيكس هو كوبرنيج ، ومعناها « متواضع » ، وإن هذه الكلمة لتخص لنا صفات مشرع السماوات وشخصيته ...

كان أبوه تاجراً مجهولاً في بلدة بولونية يطلق عليها اسم تورن ، تقع على ضفاف نهر الفستولا ... وكان في طفولته يتأمل الشمس وهي تقطع طريقها في السماء من جانب الصباح إلى جانب المساء ... وفي أثناء الليل يحدق في الشموع النجمية الخفيفة البعيدة التي تضيء السموات ... وكثيراً ما سأل والديه عن الشمس والنجوم فكانا يحيلانه على عمه لوك واتسلرود — رجل الدين المتعلم — الذي أرسل إليه كتباً تبحث في علم الفلك استوعبها نيكولاس ، ثم حول ناظريه إلى القصة الأكثر طرافة والأكثر إثارة للاهتمام ، قصة النجوم في كتابها المفتوح ، كتاب السماء ...!!

وحين بلغ العاشرة من عمره توفي والده ووضع تحت رعاية عمه ، وكان عزاؤه عن موت والده مكتبة عمه العامرة بالمجلدات التي تبحث ليس فقط في علم الفلك ، بل في الأدب والرسم والنحت والرياضة والموسيقى ، والتي انغمس في قراءتها وأخذ ينهل من موردها حتى انشرح أفق معلوماته منذ البداية في كل العلوم والفنون ..

وفي سن الثامنة عشرة التحق بجامعة كراكو وتتلمذ على يد الأستاذ ألبرت برودزوسكي أحد كبار الفلكيين في

ذلك العهد ... ومع ذلك فقد نصحه عمه من أجل حياته العملية أن يحول أنظاره من السماء إلى الأرض ، وأن تكون مهنته الطب عوضاً عن الفلك ، فاتبع ذلك النصح ونال إجازته في الطب من كراكو ، ثم طلب من عمه أن يأذن له بتكملة دراساته في إيطاليا ، فوافق بكرم على ذلك ...

ولكن قبيل سفره إلى إيطاليا أخذ يدرس فن الرسم بعض الوقت ، حتى يجلب معه كما كان يقول صوراً دقيقة تعبر عن جمال تلك البلاد وحسنها ...

في إيطاليا :

وهنا فقد سافر إلى إيطاليا مصطحباً معه كتبه وفرشاته حيث انقطع مدى ثلاث سنوات للطب والفن ودراساته الفلكية . فقد تعلم كيف يرسم لوحات لمطالع النجوم في السماء ، إلى جانب المناظر الطبيعية الخلابة ...

وفي نهاية سني الدراسة الثلاث (في جامعة بادوي) توّجه أساتذته — كما كان التعبير بلغة ذلك العهد — بتاجي الطب والفلسفة ...

ولكنه لم يعمل بعد ذلك لا في الطب ولا في الفلسفة ، وعوضاً عن ذلك فقد عين أستاذاً للفلك سنة ١٤٩٩ بجامعة روما .. وهنا قضى أربع سنوات تميزت بمحاضراته الرائعة وشهرته الواسعة ، وأخيراً عدم رضائه عن عمله ... !!

الأرض مركز الكون :

والسر في عدم رضائه هو تطلعه وشغفه الطبيعي إلى المعرفة وإزاحة الأستار عن المجهول ، فقد كان يدرس علم الفلك للطلبة وفقاً لنظرية بطليموس ! وهو مذهب كان يضع الأرض في مركز الكون وينظر إلى الشمس والكواكب كأجسام تابعة تدور حول الأرض ... هـذا النظام البطليموسي ظل متبعاً لمدة ألف وخمسمائة عام ، وبدا كأنه سيظل محتفظاً بقوته إلى الأبد .. فأساسه وعماده والحقيقة الأولية التي بني عليها هي — كما كان يقول علامة ذلك العصر — ما تراه الحواس التي لا يمكن أن تخطئ ...

هذه الحقيقة الأساسية هي « أن السماء التي فوقنا ، كما تبدو لكل من ينظر إلى دائرة الأفق ، عبارة عن إناء مقلوب تشغل الأرض مركزه ... »

واعتماداً على هذا الأمر البديهي الذي يثبت نفسه بنفسه ، وضع الفلكيون نظريتهم . أن الأرض تقف ثابتة في مكانها كأنها ملكة أبدية تقدم لها فروض الطاعة كل الأجسام السماوية ؟ فالشمس تدور فوق الأرض أثناء النهار ، وتحتها أثناء الليل ، في حين أن النجوم تقوم برحلتها تحت الأرض أثناء النهار ، وفوقها خلال الليـل .. وفي كلمات أخرى : أن الكون كرة تقوم بدورة كاملة حول الأرض كل أربع وعشرين ساعة ...

ولكن لاحظ الفلكيون أن هذا التفسير للكون لم يكن سهلاً كما تبدى أول الأمر . فقد لاحظوا أن بعض الأجرام السماوية تغير مواضعها بالنسبة للبعض الآخر ... وبعضها لو كان لهذه السيارات السابحة أو الكواكب حركة ذاتية .. وأحد هذه الكواكب الذي سماه الفلكيون بالزهرة (فينوس) كان يبدو في بعض الأحيان وهو يتبع الشمس ، وفي أحيان أخرى يظهر قبل شروق الشمس .. وكوكب ثاني وهو المشترى (جيوبتر) كان يقوم برحلة بطيئة في السماء في اثنى عشر عاماً .. وكوكب ثالث المريخ (مارس) ، كان يقوم برحلته في سنتين .. وكوكب رابع زحل (سارن) استنفد ثلاثين سنة ليتم رحلته ، وخامس عطارد (ميركري) ، كان يبدو هو الآخر كما لو كان يدور في السماء مستقلاً عن بقية الأجسام السماوية ! ثم كان القمر (عين الليل) كما كانت الشمس (عين النهار) وكان هو الآخر رحالة مستقلاً يتم دورته السماوية في حوالي ثمانية وأربعين يوماً .

وهنا — إذاً — كانت الأرض في المركز محاطة بسبعة أجسام سماوية هي : القمر والكواكب الخمسة والشمس ، كل محوهرة في كرة متحركة بذاتها .. وخارج الجميع كانت توجد الكرة الثامنة الكبرى التي تحوي النجوم الثابتة ..

هذا في اختصار كان النظام البطليموسي في علم الفلك .. كرات متتابعة مثبتة بعضها داخل البعض ، والكل يدور في

اتجاهات متباينة ، وفي سرعات مختلفة حول الأرض التي تعيش فوقها .

«الإنسان إذاً هو محور كل الأشياء» ...

الروح الحي :

ولكن بمرور الزمن وتعمق الفلكيين في دراساتهم وملاحظتهم للسماوات غدا من الضروري لهم أن يخترعوا كرات جديدة وحركات أكثر تعقيداً ، حتى يفسروا كسوف الشمس وخسوف القمر والرحلة المتعالية لكوكب من كرة لأخرى ، وبلغ عدد الكرات السماوية في عهد كوبرنيكس تسعاً وسبعين كرة ، في حين غدت حركاتها جد معقدة غير واضحة ، بعيدة عن متناول الفهم .. وعندئذ اتجه علماء الفلك إلى السحر والشعوذة : فكلما بدا أن هناك كوكباً أو نجماً قد خرج عن مداره الصحيح عزوا ذلك إلى الروح الحي لذلك النجم أو الكوكب ...

فيثاغورس وأرسطاطاليس :

وكان هذا هو نوع علم الفلك الذي درسه كوبرنيكس في جامعة روما ، ولكنه ثم بعد ثلاث [illegible] فهو قد وجد أثناء قراءاته العديدة الدائبة إشارات مختلفة لنوع جديد من علم الفلك .. وبعض هذه الإشارات يرجع تاريخها إلى عهد فيثاغورس الفيلسوف الإغريقي الذي عاش قبل كوبرنيكس بعشرين قرناً .. ومن قوله :

« إن مركز الكون ليس الأرض ولكنه الشمس ، فالأرض ليست إلا أحد الأجسام السماوية التي تدور حول الشمس » .

وقد سخر أرسطاطاليس من هذه الفكرة ، ولكن من حين إلى حين خلال الألفي سنة التي مرت بين فيثاغورس وكوبرنيكس ارتفعت بعض الأصوات مرددة من جديد فكرة فيثاغورس على الرغم من تأكيد أرسطو بخطئها ...

وقد أثارت هذه النظرية التي تقول بحركة الأرض حول الشمس تطلع كوبرنيكس العلمي وزادت شغفه بالمعرفة وكشف أستار المجهول : فإذا لو أمكن لنظام جديد فلكي مؤسس على هذه النظرية أن يفسر كل الكسوفات وكل المواسم وكل الحركات للأجسام السماوية ؟؟ .

كانت فكرة تستحق العناية والدراسة ..

ولكن اختبار مثل هذه الفكرة كان يستلزم انقطاعاً وتفرغاً وعملاً متواصلاً ، وفوق ذلك كان عليه أن يترك تدريس نظرية لم يعد يؤمن بها ، فليس للباحث أن يظل مرشداً ..

إلى الراهبنة والتأمل :

ولهذا استقال كوبرنيكس من جامعة روما ودخل الدير في قرية فروئنبورج ببولندا ليتفرغ لإعلاء كلمة الله والتأمل في ملكوته والتفكير فيما أبدع .

ولم يستنفد راهب فروئنبورج كل طاقته في واجباته الدينية ودراساته الفلكية ، بل أعطى الفقراء كثيراً من وقته وعنايته الطبية .. وقد جلبت له مقدرته وحذقه كطبيب شهرة واسعة ، حتى إن المرضى من البلاد البعيدة الذين يئس أطباؤهم من شفائهم كانوا يقصدونه طلباً للعون والشفاء [illegible] ... كما كان أطباء أوربا المشهورون يلجأون [illegible] لينتفعوا بإرشاداته في الحالات التي تستعصي عليهم .

عزاف على النهر :

ولم يكتف كوبرنيكس بتوجيه وإدارة الروحية وخدماته الطبية لأهالي بلدة فروئنبورج ، بل بدأ يعمل على راحتهم المادية .. فهذه القرية كان موقعها على جبل ولذا لم يكن في إمكان الأهالي الحصول على الماء الجاري إلا بصعوبة كبيرة ، إذ كان عليهم أن يذهبوا إلى النهر الذي يبعد نحو ميلين تقريباً لجلب ما يلزمهم من الماء .. ولذا صمم كوبرنيكس على أن يرفع الماء من النهر إلى القرويين بدلاً أن يرغم القرويون على الذهاب إلى الماء ... فأنشأ عزافاً رفع به مستوى النهر ، وحول مجراه إلى قاعدة الجبل ثم إلى طاحونة ساعدت بطريقة بسيطة ، ولكنها تدل على العبقرية ، على رفع الماء إلى مستوى برج الكنيسة ، ومن ذلك الارتفاع استقبل القرويون الماء رأساً داخل منازلهم بواسطة أنابيب ؛ وتقديراً

لهذه الخدمة الجليلة وضع أهل البلدة عند قاعدة التصميم حجراً حفر عليه اسم كوبرنيكس ...

ظرف حكيم :

والحقيقة أن اسم كوبرنيكس كان مرادفاً للفظي العطف والحكمة ؛ فى كل مشروع تعليمي أو لتحسين مستوى الحياة كان عالمنا يستدعى ليدلى باقتراحاته ، وقد وضع نظاماً جديداً للعملة بناء على طلب الحكومة ، كما أدخل تحسينات عملية فى التقويم استجابة لدعوة الكنيسة ، ويخبرنا كلافيوس فى كتابه القيم الأثرى عن التقويم : « كان كوبرنيكس أول من اكتشف المدة الزمنية الصحيحة للسنة » (أخطأ كوبرنيكس فى حقيقة الأمر فى حسابه المدة الزمنية للسنة فى ثلاثين وعشرين ثانية) .

ولما تفاعلت الحكمة والواجبات الدينية والشفقة والعطف حياة كوبرنيكس ، فقد أصبح موضع تقدير واحترام زائد من جمهرة كبيرة من الرجال والنساء ...

ولكنه فى نفس الوقت جلب كره البعض له — وخاصة جماعة التوتونيين — وهم جماعة كانت تتستر بستار الدين ، فتسرق رجال الكنيسة والفلاحين ، وحين جرؤ كوبرنيكس على الاعتراض على سرقاتهم نشروا ورقة وقحة الأسلوب يتهمونه فيها بنفس النقائص التى يتصفون هم بها ... وقد أنكر كل فرد بطبيعة الحال — هذه الاتهامات ، ولكن ذلك لم يوقف هذه الجماعة عند حدها ، بل على العكس أثار أفرادها ودفعهم إلى القيام بأنواع جديدة من الهجوم أعنف من ذى قبل ضد كوبرنيكس ... حاولوا أن ينالوا بالسخرية منه ما لم ينالوه بطرقهم الأخرى .. فقد علموا أن كوبرنيكس كان يضع نظام بطليموس الفلكى على محك الاختبار ليثبت صحته أو خطأه ؛ فوجدوا فى هـذا العمل نقطة يشنون منها هجومهم على عدوهم ، وتبعاً لذلك استأجروا عدداً من المهرجين ليذهبوا إلى القرى فيعرضوا على الجماهير دراساته الفلكية فى أسلوب ساخر هازئ؟ فيبينوا لهم الأرض الثابتة والشمس المتحركة — وتلك الأشياء التى يمكن لأى مغفل أن يراها — ثم عليهم بعد ذلك أن يقلدوا — الراهب المجنون — الذى

يقول خلافاً لكل نظام وكل إدراك إن الأرض تدور حول الشمس وإن الشمس ثابتة لا تتحرك ...

وقد أغضب ذلك السلوك الدنئ ، وتلك الخصومة غير الشريفة وهـذه المعاملة القاسية أصدقاء كوبرنيكس ... ولكن عالمنا الحكيم لم يزد على أن ابتسم وقال :

« دعهم فى غيهم يعمهون ... حركة الأجسام السماوية لن تتأثر البتة بسخرية هؤلاء المغفلين أو باحترامهم » ..

ثم استمر فى دراسته للسماوات وازداد إعجابه بضآلة الإنسان ومثالة الأرض بالنسبة إلى الكون ... فقد بدأ يدرك أن كوكبنا هذا لا يعدو أن يكون ذرة من تراب تدور دورة أبدية حول أتون الشمس ...

وأخذت الليالى تترى وهو يرقب النجوم من قمة الجبل ليلة بعد ليلة ويصل قليلاً قليلاً فى النظرية الخاصة بالسماوات التى ما زالت حتى اليوم تحمل اسمه ...

وهنا فى اختصار نظريته — نظرية تفسر بكل دقة الحركات المتداخلة والتكسوفات للأجسام السماوية .. حتى إنها معتبرة اليوم كحقيقة من الحقائق ..

نظرية كوبرنيكس :

تدور الأرض حول الشمس التى هى مركز الكون حركة مزدوجة — كنحلة — فهى تدور حول محورها وفى مسرى دائرى (أو بالأحرى بيضاوى) .. هـذه الحركة المزدوجة تفسر تعاقب النهار والليل وكذلك تعاقب الفصول .. ولكن ليست الأرض هى الكوكب الوحيد الذى يدور حول الشمس ، فهناك كواكب أخرى تدور حول هذا النجم المركزى للكون ، وهى : نبتون ويورانس وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد ...

وليست هذه الحركات نتيجة لرغبة خيالية للأرواح الحية لتلك الكواكب ، بل هى تتبع قوانين الطبيعة الثابتة التى لا تخطئ ، وكل من تلك الكواكب يدور داخل مداره الذاتى حول الشمس ، ولا يحيد عن مساره جزءاً من الثانية من النظام الزمنى الثابت الذى لا يتغير للسماء ... فكل كوكب لا بد أن يوجد فى أية لحظة فى المكان المحدد له ،

وكل فصل يصل في البلاد المعتدلة ، وكل حركة لكل جسم سماوي تتم طبقاً للمرسوم .

هذه هي ساعة السماء الخالدة التي لا تخطئ ، كما بينها كوبرنيكس في نظامه الفلكي . فإذا أنت وجدت مفتاح هذه الساعة وهو حركة الأرض حول الشمس وحركة القمر حول الأرض ، لأمكنك — ليس فقط — أن تفسر ، بل أن تحدد المواقع النسبية لكل نجم وكوكب في أية لحظة تحلو لك ، وأن تبين الوقت الزمني للفصول في أي جزء من الأرض ، والكسوف والخسوف في أية بقعة من السموات ...

وقد أتم كوبرنيكس نظريته الفلكية المتعددة النواحي في ثلاثين سنة ، واستعان على إتمامها عملياً بمساعدة حواسه — فلم يكن التلسكوب قد اخترع بعد — ورياضياً بتقديرات عقله الثابة وتفكيره الهادئ ...

فبكل صبر وأناة كان يقارن بين مشاهداته المدونة ومعادلاته الرياضية ، فلاحظ كسوف القمر سنة ١٥٠٩ وسنة ١٥١١ ، وموقع المريخ في سنة ١٥١٢ وسنة ١٥١٨ ومكان زحل والمشترى في سنة ١٥٢٠ ، واتصال الزهرة بالقمر سنة ١٥٢٥ ، وفي كل سنة كان يلمس المطابقة بين مشاهداته والتقديرات النظرية التي وضعها .. وأخيراً في سنة ١٥٤٣ كان على استعداد لأن يعلن للعالم أن الأرض ليست سجينة لا تتحرك يسمح لنا منها أن نحيط برحلات النجوم ، بل هي مركبة دائبة على الدوران تحملنا معها في مغامرتها الأبدية خلال الفضاء الشاسع لهذا الكون ...!!

وبتحليلنا النهائي لنظام كوبرنيكس فإنا نجد أنه لم يقلل من كبرياء الإنسان الذي اعتبر في نظام بطليموس مركز الكون ، بل إنه جلاها وأظهرها .. فبتحرير جسمه نرى أيضاً أنه قد حرر عقله ... لقد أعطى هذا النظام أجنحة لتصور الإنسان وزاد من رقعة المعرفة .. وإن عمل كوبرنيكس ليعتبر في دنيا الفلسفة وخاصة في حقبة العلم بداية لعهد جديد ...

وأثناء عمله في نظريته الفلكية كان كوبرنيكس يراسل بشأنها أساطين العلم في أوربا ، ولكنه تردد مرة بعد مرة في نشر نتائج دراساته مصدقاً كما كتب في خطاب إلى البابا أنه قد يكون من الحكمة « اتباع مثال الفيثاغوريين الذين لم يتركوا شيئاً من مشاهداتهم على الورق ، ولكنهم نشروها شفوياً وأوصلوها لمن توسموا فيهم القدرة على فهمها .. » .

وقد أظهر علماً بهذا التردد أنه حكيم حريص ، فمن المحتمل أنه ظل مدة طويلة مشفقاً من نشر كتابه — ليس لما قد يلحق بشخصه من الضرر — ولكن لما في ذلك من الخطر على نظريته . فقد كان يشعر أن عليه أولاً أن يبرهن على صحة نظريته بعدد كاف من الحقائق البينة التأكيدية قبل أن يعرضها على العالم ، وإلا كان كمن يضع فكرة غير ناضجة بين أيدي عالم يتربص له ...

كان يخشى ويفزع من أن يرى نظريته القيمة تحطم وتموت قبل أن تعطى الفرصة لتأخذ مكانها فوق أسس ثابتة ...

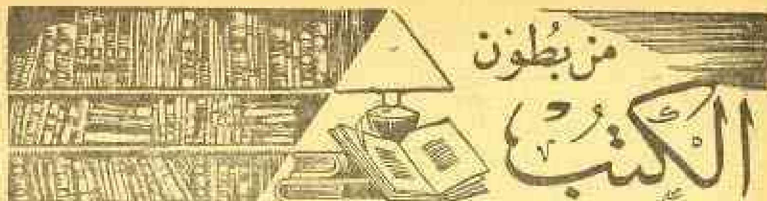
وعلى الرغم من ذلك فقد اكتملت له دلائله وبراهينه [illegible] على استعداد وأهبة لأن يقدم نظامه الجديد [illegible] فكرة ولكن كحقيقة ...

كانت سنه حينئذ سبعاً وستين سنة ، فعهد بنشر كتابه الذي ضمنه أبحاثه ونتائجه إلى صديق يثق به يدعى تيدمان جيسيس ..

وظهر الكتاب إلى حيز الوجود في ربيع سنة ١٥٤٣ بمقدمة محية بدون توقيع ، يقول فيها كاتبها المجهول معتذراً عن كوبرنيكس : « لقد كتب هذا الكتاب ليقدم صورة خيالية لا حقيقة علمية .. » .

وحين نشر الكتاب كان كوبرنيكس عاجزاً أن يعترض على هذا التقدير الساخر الذي يسخر فيه كاتبه من عمله الذي أمضى فيه زهرة حياته ، إذ كان على شفا الموت مصاباً بالشلل .. ومات بعد مدة أيام من نشر كتابه الخالد الذي لا يموت ، في الرابع والعشرين من مايو سنة ألف وخمسمائة وثلاثة وأربعين ...

جمال الدين محمد مرسى



هل زار هـؤلاء مكة

في القرن الخامس عشر (١)

للأستاذ إحسان عباس

لم يكن وصول الأوروبيين إلى بلاد العرب بالأمر الهين الميسور، وخاصة في القرن الخامس عشر حين كانت المنافسة التجارية على أشدها بين التجارة العرب والبرتغاليين الأوربيين، في تجارة الهند؛ ولكن وصول الأوربي إلى بلاد العرب يومئذ أمر ممكن إذا ما قورن بصعوبة الوصول إلى مكة وزيارتها! ومع ذلك فلدينا أنباء تتحدث عن بعض الرحالين زار مكة نفسها في ذلك التاريخ.

وأقدم رحلة عرفت الإشارة إليها، رحلة قام بها كابوت الأكبر — فيما يقال —. والمصدر الوحيد عن هذه الرحلة كتاب رسمي كتبه سفير دوق ميلان في لندن، جاء فيه أن كابوت ذكر خبر زيارته لمكة وتحدث فيها إلى تجار التوابل. وقد حاول بعض الباحثين أن يرد هذه الدعوى وينكر أن يكون شيء من ذلك قد حدث؛ وحجته في ذلك أن وصول أوربي مسيحي إلى مكة يعد ضرباً من المستحيل! غير أن دائرة المعارف البريطانية سجلت خبر هذه الرحلة في آخر طبعة لها، وذكرت — دون تردد — أن كابوت زار مكة في أحد أسفاره، وأن مكة كانت يومئذ أكبر سوق يتم فيها تبادل البضائع بين الشرق والغرب.

لعل كابوت سافر إلى مكة متنكراً كما فعل غيره من الرحالين، وفي هذا ما فيه من مجازفة؛ ولكن ليست هذه هي الصعوبة الوحيدة التي تقف في وجه الرواية المتعلقة برحلته، فقد كان ما دونه السفير يفيد أنه زار مكة أكثر من مرة، فهل هذا؟ إذا كانت محاولة الوصول إلى مكة مرة واحدة ضرباً من المخاطرة، فمن الحق أن يحاولها رجل مسيحي أكثر من مرة؟ ثم هب أن في النسخة التي وصلتنا شيئاً من التحريف، فإن الخبر بعد كل ذلك لا يسلم من الاعتراض والتشكك. فقد ذكر السفير في كتابه أن كابوت رأى القوافل المثقلة بالتوابل آتية إلى مكة، وسأل من يقودونها: من أين جاءوا بها؟ فأجابوه بأنهم لا يعرفون مصدرها، ولكنهم تسلموها من جماعة آخرين أتوا بها من بلاد بعيدة، وهؤلاء تسلموها من جماعة غيرهم جاءوا بها من بلاد بعيدة أيضاً، وهكذا! فاستنتج كابوت مما قالوه أنها تجيء من الشرق الأقصى، وتصور أنها تنقل من مصدرها الأصلي على ظهور الجمال وتقطع آسيا براً! ولكن كل من يتحدث إلى التجار في مكة يستطيع أن يفهم منهم أن التوابل كانت تجيء بحراً لا براً، وأنها لم تكن تأتيها من بلاد

(١) من مقال في JRAS، سنة ١٩٤٩ (Part 3-4) للأستاذ: C. F. Beckingham

جيدة ، بل كانت تنقل إليها على ظهور الجمال من جدة وهي على مسيرة يومين منها .

وإذا كان هناك شك حول ما روى عن زيارة كابوت لمكة ، فليس ثمة داع لمثل هذا الشك في زيارة بيرو دي كوفيلا لمكة والمدينة — كان كوفيلا رجلاً رحالاً يحسن اللغة العربية ، سافر مرتين مبعوثاً إلى مراكش ، ثم عهد إليه ملك البرتغال بتقصي البحث عن طرق التوابل . ويقول ألفاريس الذي كان قسيساً مرافقاً لسفير البرتغال في الحبشة (١٥٢٠ — ١٥٢٦) : إن كوفيلا كان يعرف كل اللغات المسيحية والإسلامية والوثنية . وقد ألقى كوفيلا عصا التسيار في الحبشة بعد أن قضى أربه من الرحلة ، ولم يسمح له بمغادرتها . فأفادت السفارة البرتغالية فيها من معرفته باللغة والعادات الحبشية ، وهناك تعرف إليه ألفاريس ، واتصل به اتصالاً وثيقاً ؛ ولذلك نستطيع أن نتلقى ما يقوله ألفاريس عنه في ثقة واطمئنان ، لأنه كان رجلاً دقيق الملاحظة .

ذهب كوفيلا وفي صحبته صديق له يدعى بايفا إلى الإسكندرية والقاهرة متنكرين في زي التجار ، ثم صحبا فريقاً من المغاربة إلى طور وسواكن وعدن ، وهنا افترق الصديقان ، فذهب بايفا إلى الحبشة ، واستمر كوفيلا في رحلته فوصل إلى الهند ، ثم عاد إلى القاهرة ، وكان قد اتفق هو وصديقه على أن يلتقيا فيها ، غير أنه حين عاد إليها علم أن صديقه قد أدركته المنية ، فوطن النية على أن يرجع إلى البرتغال ، وفيما هو يتأهب لذلك ، وافاه اثنان من اليهود يحملان له من ملك البرتغال أوامر خاصة ، ونزولاً على تلك الأوامر كتب سجلاً باكتشافاته واستطلاعاته وأرسله إلى البرتغال مع أحد اليهوديين ، ورحل مع الثاني إلى الشرق ، ولما بلغا هرمز افترقا ، وحينئذ ذهب كوفيلا إلى جدة ومكة والمدينة وجبل سيناء ، ثم رجع إلى الحبشة حيث أمضى بقية حياته .

ويذكر ألفاريس أن قبر النبي محمد في المدينة ، وهي إشارة هامة تثبت أنه اقتبس المعلومات الصحيحة من كوفيلا ، وهي دليل أيضاً على صدقه فيما روى ، لأنه لم يخطئ ، كما أخطأ كثيرون من قبله ومن بعده حين حسبوا أن النبي مدفون في مكة ، وأن المسلمين إنما يحجون إلى قبره .

أما فون هارف — ثالث هؤلاء الرحالة — فقد كتب رحلته بنفسه ، فقال إنه غادر القاهرة في شهر يوليه عام ١٤٩٧ إلى سيناء ، وإنه قطع بلاد العرب حتى وصل إلى عدن ، وفي طريقه مر بمكة ، وهي مغامرة فريدة وخاصة إذا قام بها رجل أوربي ؛ ولكن ما يقوله فون هارف يجب أن يؤخذ في حيطة ، ونحن نستطيع أن نصدقه في بعض ما قاله لا في جميعه . حقاً أن قسطاً كبيراً مما جاء في رحلته صحيح ولكنه مشوب بكثير من الأساطير والخرافات .

ونحن قد لا نصدق أيضاً أن فون هارف اجتاز بلاد العرب من شمالها إلى جنوبها ، ولكنا لا ننفي أنه ذهب من مصر إلى فلسطين ، ثم أضاف إلى ما كتبه عن هذه الرحلة أخباراً أسطورية [illegible] في بلاد العرب عشراً من المدن ليس [illegible] ، أما بقيتها فلا يمكن تعيينها . ويحدثنا فون هارف أنه رافق في الطور جماعة من الحجاج ، وإذاً فلابد أن يكون قد مر بالمدينة غير أنه لا يسميها ، اللهم إلا إن كان يعنيها حين يذكر « زربا » — وهو اسم يذكرنا بيثرب — غير أن هذا البلد يقع — حسب تقديره — على مسيرة عشرة أيام من مكة .

ويقول فون هارف إنه رافق ركب الحجاج غير متنكر ، وكان في الرفقة جماعة من المسيحيين واليهود ، ولما أصبحوا من مكة على بعد ميلين ونصف ، توقف عن السير لأن دخوله إلى مكة كان محرماً عليه في هيئته تلك ، وهذا كلام غريب ، إذ كيف يتيسر له أن يشرف على مكة ، والحجاج إنما يبدأون إحرامهم عند أبيار علي الواقعة على مرحلة واحدة إلى الجنوب من المدينة ، هذا إذا سلمنا معه أنه استطاع مرافقة الحجاج دون تنكر . وأغرب من ذلك

(البقية على صفحة ٢٢)

برهان المعتزلة على وجود الله

للدكتور ألبير نصري نادر

تسترشد المعتزلة بالعقل في البرهان على وجود الله . تقول إن كل كائن عاقل يمكنه أن يدرك هذه الحقيقة — أعني وجود الله — بواسطة عقله . ولذلك يكفيه أن يفكر في المخلوقات الحادثة وفي أسبابها المختلفة حتى يصل إلى القول بوجود سبب أول لها . وعلى المفكر أيضاً أن ينظر إلى النظام السائد في العالم ليرى فيه برهاناً جلياً واضحاً على وجود منظم له . فيكون للمعتزلة برهانان أساسيان على وجود الله : برهان بالعلة الفاعلية ، وبرهان بالعلة الغائية .

البرهان بالعلة الفاعلية :

المخلوقات كثيرة ومتعددة . والحركة أوضح وأظهر هذه المخلوقات ، وبها تبدأ المعتزلة وتبرهن على حدوث العالم وعلى وجود محرك أول له . فيقول أبو الهذيل [illegible] لا أول لحركات لا تتناهى أولاً(١) ، أعني [illegible] الأول ، ومعنى آخر هو ينكر الحركة التي لا بداية لها . [illegible] لكل حركة محرك تتحرك بواسطته . وهذا ما تظهره لنا التجربة . ولما كان الأمر كذلك فلا يمكن التسلسل في مجموعة العلل . لذا وجب حتماً أن نقر بوجود محرك أول لا محرك آخر ، وهو السبب الأول لكل حركة ، وهذا المحرك الأول هو الله(٢) .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل جـ ١ ص ٤٤ .

(٢) هذا البرهان بواسطة الحركة فكرة أرسطو قديماً وقال بمحرك أول علة الحركة في العالم ، ثم تراجع في قوله إذ أدرك أن المحرك يجب أن يماس ما يحركه ، ووجد أفلوطين هذا القول فقال إن « الواحد » الأول يفيض ويفيض « العقل » ثم يفيض هذا العقل ليحدث النفس الكلية وهي علة حركات العالم ونظامه . لكن أبا الهذيل ترك جانباً فكرة الفيض محافظة على التوحيد والتنزيه ، ومن جهة أخرى لم توقفه فكرة المماسة بين المحرك والمتحرك ، لأن العلة الأولى أو المحرك الأول عنده لا يتبع هذا العالم المحدث بأسره ، بل منحه الوجود فقط وكل ما يتعلق بالوجود من حركة وأعراض أخرى .

ويزيد أبو الهذيل قائلاً : بما أن الحركات لا تتناهى أولاً فهي أيضاً لا تتناهى آخراً(١) . أعني أن كل حركة لها أول فلها آخر حتماً . وعلى هذا القول المنطقي بنى أبو الهذيل نظريته في سكون أهل الخلدين . وهذا السكون هو بمثابة حالة « نعيم أو عذاب » ينتهي إليها كل مؤمن وكافر لما تنتهي حركته .

والنظام يوضح فكرة أستاذه أبي الهذيل هذه عندما يتكلم في النهايات ويبرهن على أن كل حركة متناهية ، وأن ما هو كذلك إنه محدث . فيقول النظام : ليس [illegible] من أن يكون متناهياً أو غير متناه ، فإن كان متناهياً فله أول ، فإذاً هو محدث ، وإن [illegible] له أول ، وما لا أول له لا يجوز الفراغ [illegible] دليل على نهايته(٢) . فلما كانت جميع الحركات متناهية بالنسبة إلى المكان والزمان فهي إذاً متناهية ، وعلى ذلك تكون محدثة ، وكل محدث يحدث عن علة ولا يمكن التسلسل في العلل ، فلزم القول بعلة أولى غير محدثة ، وهي الله .

ليس البرهان بالحركة هو كل ما تستند عليه المعتزلة لإثبات وجوده تعالى — وإن كان هذا البرهان هو أسبقها وأولها — هناك براهين أخرى ترتكز على نظريات فلسفية يقدمها بعض المعتزلة ، فلا يستنتج الإسكافي وجود الله من وجود الأشياء ، ويقول : إن الأشياء تبدأ من بدايتها لأنه إن لم يكن لها بداية فلا يمكن أن يوجد شيء . فوجود الأشياء يدل على أن لها بداية . والبداية حركة ، إذ أنها الورود من حالة العدم إلى حالة الوجود . وهذه الحركة يلزمها محرك

(١) الشهرستاني : الملل جـ ١ ص ٥٤ .

(٢) الخياط : كتاب الانتصار ص ٣٤ .

والتسلسل يمتنع هنا ، فإذاً يوجد محرك أول حرك الأشياء من العدم إلى الوجود[1] .

وبرهان هشام الفوطي يرتكز على الفرق الموجود بين الجوهر والعرض ، فيقول : إن الأعراض لا تدل على كونه تعالى خالقاً ولا تصلح الأعراض دلالات ، بل الأجسام تدل على كونه خالقاً[2] . ولا عجب في ذلك — رغم أن الشهرستاني يتعجب من هذا القول ؛ ففي نظر هشام — وفي نظر أغلب المعتزلة أيضاً — الأعراض تصدر طباعاً عن الجواهر ، والأعراض ملازمة للجواهر في حالة العدم . ولما كانت الجواهر تتحقق عندما يمنحها الله الوجود فتكون هذه الجواهر فقط هي البرهان على الأشياء التي منحها الوجود . والأعراض لا تصدر من الله بل من الجواهر عند وجودها — يريد هشام أنه على الله يُعرف وجودها باضطرار . والأعراض يعرف وجودها باستدلال ونظر ، لذلك فأوثق الأدلة الناطقة هي الأجسام ، أعني الجواهر من حيث إن الأعراض تابعة للأجسام والأجسام سابقة الوجود ، و[illegible] وجودها من علة خارجة عنها . [illegible] لون ولا طعم ولا رائحة ولا حر [illegible] ولا تأليف ولا افتراق يدل على الله ؛ [illegible] كلها لا تدل على خالقها[3] . إن قول هشام هذا نتيجة منطقية لقول المعتزلة بالعدم والوجود[4] . وابن حزم يزيد

هذا القول توكيداً عندما يذكر معمراً ويقول إنه كان يزعم أن الله لم يخلق لوناً ولا سماحة ولا طعماً ولا رائحة ولا جمالاً ولا قبحاً ولا شيئاً أملس ولا خشناً ولا قوة ولا ضعفاً ولا حياة ولا موتاً ولا مرضاً ولا صحة ولا بصراً ولا صمماً ولا فساد النبات ولا صحته ، لأن كل هذا إنما تفعله الأجسام طباعاً . ويخلص معمر إلى أن الله لم يخلق سوى الجواهر[1] .

فيكون برهان المعتزلة الأول هذا برهاناً أساسه نظريات الفلسفة تتعلق بماهية الكون وتركيبه من جواهر وأعراض وعبوره من حالة العدم إلى حالة الوجود . فقط هذا العبور — وهو الحركة الأولى للكون — يتطلب عاملاً خارجاً من العالم وغيراً عنه . أما الحركات الأخرى وكل ما يتعلق بالجواهر من أعراض فالمعتزلة تقول بأنه عمل طبيعي للجواهر ولا يمكن أن يكون برهاناً عاماً على وجود الله . لذلك لجأوا إلى الأجسام في إثباتهم لوجوده تعالى[2] .

البرهان بالعلة الغائية :

[illegible] الأول يقوم على نظرية المعتزلة الجديدة في الفكر الإسلامي ، ألا وهي فكرة العدم الذي يسبق الوجود ، فالبرهان الثاني يقوم على العالم المتحقق في الوجود . وأول ما يلفت نظر العاقل عندما يتأمل في الكون هو هذا النظام السائد فيه . والنظام لا يحصل اتفاقاً . والأفعال المحكمة — على حد قول المعتزلة — دالة على علم محدثها ؛ إذ الاتفاق والإحكام من آثار العلم لا محالة ، وإذا كان الفعل صادراً من فاعل متقن فيجب أن يكون من آثار علم ذلك الفاعل[3] . والعقل يدرك هذا النظام عندما يشاهد الصلات الطبيعية المحكمة بين الأعراض وجواهرها ويقضي حينئذ أن لها مدبراً

(١) يقول المعتزلة إن العدم شيء وذات وحقيقة ينقصها الوجود ، وإن الله يمنح هذا العدم الوجود فلما يصبح موجوداً . لذلك يقول الاسكافي إن وجود الأشياء برهان كاف على وجود الله الذي منحها الوجود .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٧٨ .

(٣) الخياط : كتاب الانتصار ص ٤٥ .

(٤) هذه الأقوال تبدو مختلفة لأول وهلة ، ولكنها تتفق تماماً إذا فهمناها على ضوء قول المعتزلة بالعدم . ومسألة العدم من المسائل الرئيسية في مذهبهم ، وهم يفسرون بواسطة فكرة العدم وجود الله ويميزون ماهيته تعالى من ماهية العالم كما أنهم يفسرون مسألة الخلق وما يتعلق بها من أقوال في الجوهر والعرض — والخلق في نظر المعتزلة هو صيرورة من حالة العدم إلى حالة الوجود . ولكن في حالة العدم الأعراض ملازمة للجواهر . فإنه الخلق يتعلق فقط بالوجود الذي يمنحه الله للجواهر حتى تكون — أعني حتى تتحقق ، فلا يكون الله الخالق المباشر للأعراض ، إذ أنها فعل الجواهر بالطباع .

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) حاولت المعتزلة أن تبين أن ماهية الله تختلف تماماً عن ماهية العالم ، وأنه لا توجد أي مشابهة بين الماهيتين ، لذلك لا يصلح العالم من حيث ماهيته وأعراضه أن يكون برهاناً على إثبات ماهية الله ، بل فقط وجود العالم وكل ما يترتب على هذا الوجود يمكن أن يكون دليلاً على وجود علة أولى لوجود العالم .

(٣) الشهرستاني : نهاية الإقدام ص ٦٧ .

دبرها(١) . وهكذا ترتفع المعتزلة من الأشياء المحسوسة التي تخفى في ثناياها أحكم نظام بصورة العقل المجرد من كل مصلحة شخصية ، وتثبت وجود عقل غاية في الكمال رتب ونظم هذا الكون .

فيكون هذا البرهان متمماً للبرهان الأول ، لأن الله واهب الوجود ، والوجود تحقق الجواهر ولكل ما يتعلق بها من أعراض . ولما كان الوجود كلاً . وهذا الكمال يحركه العقل لما يفكر في المحسوسات أعني الأعراض ؛ والعقل يصل حتماً بعد هذا التفكير إلى القول بتدبير متعال غاية في الكمال . فالعقل كاف في مذهب المعتزلة للوصول إلى معرفة الله ؛ لذلك يقولون إن كل من أهمل هذه المعرفة وقد اكتمل عقله فهو كافر ومحاسب على إهماله هذا ؛ وبما أن العقل مشترك بين الجميع فعلى كل عاقل أن يدرك هذه الحقيقة الأولى وذلك قبل أي تنزيل .

وإثبات الله بالعقل يترتب عليه أيضاً إثبات الشريعة عقلاً ؛ وهذا ما تقرره المعتزلة وتبني عليه كل المسألة الأخلاقية ، وهذا الأصل من أهم الأصول التي يتمسكون بها وهو أكبر ركن لفلسفتهم .

(بغداد — كلية الآداب) ألبير نصري نادر

(١) الخياط : الانتصار ص ٤٩ .

هل زار هؤلاء مكة

(بقية المنشور على صفحة ١٩)

ما وصف به مكة نفسها ، فقد كان معه ترجمان مسيحي يقول أشار عليه أن يتنكر ففعل ، [illegible] هي : « مدينة جميلة تسر الناظرين ، [illegible] » وإلى جانبها « نهر جميل واسع المجرى » . وليس هناك نهر كهذا في الحجاز ، وربما كان يعني سيلاً من السيول ، غير أن السيل لا يجرى على مقربة من مكة بل يخترقها .

ويقول أيضاً : « إن المسجد فيها مشيد كأجمل بناء على وجه الأرض » ومن الغريب أن يصدر مثل هذا القول عن رجل شاهد منارات القاهرة ورأى مسجد المدينة ؛ ذلك لأن ارتفاع الكعبة لا يتجاوز خمسين قدماً .

وربما كان الوصف الذي كتبه فون هارف ينطبق على المدينة أكثر منه على مكة ، فالأرض الواقعة بين المدينة والحرة تكسوها أشجار النخيل ، وبين النخيل يزرع القمح وبعض الخضر ، وهناك مجرى من الماء يمر من ناحيتها الجنوبية . وفي ذلك التاريخ كان قايتباي قد جدد مسجد الرسول ، ولعل ارتفاعه استطاع أن يستأثر بإعجاب هذا الرحالة . ومن المحتمل أن فون هارف سمع وصفاً للمدينة ، فأدرجه في رحلته وجعله وصفاً لمكة . وأخطأ حين ظن أن قبر محمد في مكة ، وأن المسلمين يحجون إليها لوجوده فيها . وعند فون هارف ملاحظات أخرى عن بلاد العرب ، ولكن ليس فيها ما يوقف عنده .

إحسان عباس



نقد الكتب

تلخيص كتاب النفس

لأبي الوليد بن رشد

نشر وتحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني — ١٨٨ + ٦٢ صفحة — القاهرة سنة ١٩٥٠

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لابن باجة — أو ابن الصائغ الأندلسي — ثلاث طرق في حصول المعقولات: (طريق الجمهور)، وهو النظر في الموضوعات أولاً فوصول إلى المعقول؛ (وطريق النظار) بالنظر إلى المعقول أولاً وإلى الموضوعات ثانياً؛ (وطريق السعداء) وهم الذين يرون الشيء [illegible] — شهد الله — أن أحصل [illegible] من مسائل النفس والعقل في هذا الكتاب على أثر ذي جدوى...؟

حاولت أن أسلك طريق الجمهور — ونحن في عصر ديموقراطي — حتى لا أخرج عن إجماع العصر، فلم أصل إلى شيء... وحاولت أن أسلك طريق النظار فلم يزدني النظر إلى المعقول إلا جهلاً بالمعقول. فلم يبق إلا طريق السعداء من طرق ابن الصائغ الأندلسي، وهو طريق لم أحاول — في الحق — أن أسلكه خشية أن لا أكون أهلاً لسبر غوره، أو مخافة أن لا أكون سعيداً مثل هذا الطريق.

ولا أكتم القارئ أني أجهدت (نفسي)، وأجهدت (عقلي) حين لم أخرج من هذا الكتاب بكبير طائل؛ وإلا فما الذي يعنيني أن تكون (العقول) أربعة أو أربعين أو ما شئت أن تضاعف ذلك من الأعداد! وما الذي يعنيني أن يكون الفيلسوف العربي (الكندي) قد قسم العقول إلى أربعة، في حين أن (الإسكندر الأفروديسي) قد قسموها إلى ثلاثة؟

أو كذا في أني لم أبال من ذلك الخلاف بين (العقول) في قليل ولا كثير... في حين أن الدكتور الأهواني قد [illegible] فراح يوفق بين رأي الكندي ورأي الإسكندر الأفروديسي، لأن الإسكندر هنا يتحدث عن العقل الرابع الإضافة للعقل بالفعل. و «أو» هذه هي التي حيرتني في منطق الدكتور الأهواني وفي إدراكه للعقول، لأن الصفة للعقل بالفعل لا يلزم منها أن تكون عقلاً رابعاً. فكيف تجعل الصفة للعقل بالفعل عقلاً جديداً؟ اللهم إلا أن تكون محاولة التوفيق بين فيلسوف وفيلسوف هي التي تقذف بنا إلى مثل هذه المشكلات.

وقد يسأل سائل كريم: وما دخل الكندي هنا في كتاب عنوانه «تلخيص كتاب النفس لابن رشد»؟ ولكن الحق أن هذا الكتاب الذي أخرجه الدكتور الأهواني هو خمسة كتب في كتاب (واحد). ولفظ (الواحد) هنا في كلامي أنا ليس إلا تعبيراً بسيطاً عن المعنى الذي نفهمه جميعاً من كلمة «واحد». أما (الواحد) بالمعنى الفلسفي الذي ذكره الدكتور الأهواني في صفحة ٥٠ شرحاً لنظرية المعرفة والاتصال عند ابن باجة، فذلك ما لم أرده ولا أود أن أريده لأنه (واحد) غير مفهوم.

وأعود إلى هذه الكتب الخمسة في هذا الكتاب الواحد؟ ألا تذكرنا بكتب المطابع التي تضم لنا رسالة إلى رسالة ليتكون من الرسائل كتاب؟ وما في ذلك بأس إذا كانت الرسائل ينظمها سلك واحد ويؤلف بينها موضوع واحد. والسلك هنا في هذا الكتاب الذي تحدث عنه أقوى ما يكون ظهوراً، فهو النفس والعقل واتصال العقل بالإنسان.

وكتاب النفس هو لأبي الوليد بن رشد، ورسالة النفس الأخرى هي المنسوبة لإسحاق بن حنين، ورسالة العقل هي ليعقوب الكندي، والرسالة الأولى من الاتصال هي لأبي بكر بن الصائغ الأندلسي، والثانية هي لولد ابن رشد أو لأبي ابن رشد، وقد آثر صديقنا المحقق أن ينسبها على الغلاف إلى ابن رشد، وأن يحقق نسبها في ص ١١٩ إلى ولد ابن رشد الذي أخذها عن أبيه في حياته؛ وعدّها صاحبنا من هذا الوجه من كلام ابن رشد.

ولكم كنت أود أن يكون ترتيب الدكتور الأهواني لهذه الرسائل — من حيث تقديم [illegible] أكثر تمشياً مع منطق الأشياء، [illegible] إليه النفس للطمأنينة والرضى. فقد [كان طبيعياً أن تكون] رسائل النفس والعقل أولاً ثم تليها رسالتا الاتصال؛ حتى يكون موضوع النفس والعقل في طرف، وموضوع اتصالها بالإنسان في طرف آخر. أما هذا القفز من النفس إلى الاتصال، ثم العودة ثانية إلى النفس فالعقل، فترتيب ما أجدره أن يسمى غير ترتيب.

ولكم كان يزعجني، وأنا أقرأ هذا الكتاب، أن أنتقل من النفس، إلى اتصال، إلى نفس، كأنما كنت أتوقّل مرتفعاً وعر الصخور! ولطالما سألت نفسي: ألم يكف ما في الرسائل نفسها من صعوبة وعدم طواعية للفهم حتى يزيد الدكتور الأهواني طريقها وعورة بفقدان الترتيب والتسلسل، وما سبيل إلى الفهم؟

ويخيل إلي أن ترتيب الرسائل وترتيب المقدمة الطويلة للناشر المحقق، قد عرض لها من الأمر ما لم يكن في طوق صديقنا الدكتور الأهواني ... ففي رسالة العقل للكندي — وهي آخر رسائل الكتاب — يقول الدكتور في التمهيد لها:

وسوف نعرض لهذه الرسالة بشكل أوفى عند الكلام في المقدمة الموضوعية عن العقل وتطوره منذ أرسطو إلى شراحه اليونانيين والإسلاميين.

ونبحث — بعد ذلك — عن هذه المقدمة الموضوعية التي «سوف يعرض لها المحقق» فتراها قد سبقت في أول الكتاب، وأخذت مكانها منه؛ ألم يكن هناك حاجة إلى هذا «التسويف» الذي لم يكن له محل ...!

ولنعرج على «طريقة النشر» التي سار عليها صديقنا المحقق والتي قال بها في مقدمة الكتاب. فقد ذكر أن هناك طريقتين للنشر: الأولى الاعتماد على مخطوطة تثبت في المتن، ووضع الفروق بينها وبين النسخ الأخرى في الهامش؛ والثانية إدماج النسخ في نسخة واحدة يرى الناشر أنها أليق ما يكون في النص مع إثبات الفروق في الهامش. وآثر [المحقق] الطريقة الأولى، لأنه كان أمام مخطوطتين بينهما خلاف كبير، [ف]أثبت النسخة مدريد في متن الكتاب، لأنها هي [illegible] وأصحها. ولكنه بعد ذلك يقول: [illegible] نقلنا من الهامش إلى المتن بعض ألفاظ وعبارات [illegible] من نسخة القاهرة، إما لأنها أصح، وإما لأنها ضرورية ورأينا إدراجها في المتن.

ويأذن لنا الصديق المحقق أن هذا الاضطراب في الطريق لا يتفق وأصول النشر العلمي، مهما حاول أن يجد له من أسباب، ولو أنه سار على الطريقة الثانية — طريقة إدماج النسخ الخطية في نسخة واحدة لكان أقوم سبيلاً من الخلط بين طريق وطريق. إلا أنه — على كل حال — مشكور بتقديم هذه الرسائل إلى الطباعة العربية لأول مرة؛ وبهذا أتاح لنا أن نرى النور من جديد بعد أن كانت مطوية في ظلام المخطوطات. وبهذا أيضاً أتاح للناس — أو يتيح لهم — أن يقرءوها، وأن يعرفوا وجهة نظر هؤلاء الفلاسفة في النفس والعقل وكيفية اتصال العقل بالإنسان.

وأعود فأسأل نفسي وأسأل الدكتور الأهواني: ما قيمة الاشتغال بهذه البواطل والبحث عن جوهرها

وحليتها الأولى ، وهو — كما يقول صاحبنا المحقق — مطلب عسير المنال بعيد عن حدود العقل البشري ! وإذا كان علم النفس الحديث يبحث في السلوك والمشاهدات ليصل من الملاحظة والتجربة إلى القوانين العامة ، فإننا نصدع رءوسنا بمباحث النفس والعقل عند القدماء — يونان وعرباً — وهي مباحث تدخل في الغيبات التي لا تدركها عقولنا نحن ولو كانت عقول الفلاسفة أو المشتغلين بالفلسفة ... !

على أن الدكتور الأهواني معذور حين يخرج لنا هذه المباحث القديمة ؛ بل فرض عليه وعلى المشتغلين بالفلسفة أن يخرجوها ، لندرك — على الأقل — مدى تصور القدماء للعقل والنفس ؛ وقد أحسن الناشر بهذه المقدمة الطويلة — التي يتواضع فيصفها بالإيجاز — والتي عرض فيها لتطور فكرة العقل والمعرفة من أرسطو — عند اليونان — إلى ابن رشد عند الأندلس .

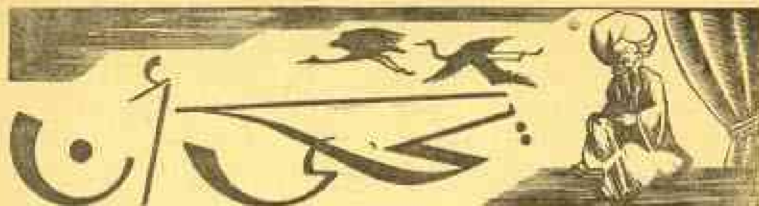
* * *

وبعد ، فقد قرأت كتاب النفس لابن رشد ، وقرأت معه الرسائل الأربع في فترة من أشد الفترات حرارة في القاهرة من أيام فصل عذاب النفوس ... ولعل ذلك للوجهة الشاقة أثراً في تقديري لهذا الكتاب ، وسأعيد قراءته حين تسكن النفوس ، فلعل المعاودة لمثل هذه الكتب أجرى بالتغلب عليها ! على أني لا أكتم الحق أني أرتشفت من مسائله الجميلة اللطيفة ما يوحي الثقة في قراءته وفهمه . فما ألطف تساؤل الفيلسوف وهو يقول : (ما بال الحواس لا تحس أنفسها ، مثل البصر لا يبصر نفسه ، ولا الذوق يذوق نفسه ، ولا سائر الحواس تحس بأنفسها ؟) . والفيلسوف هنا هو أرسطو ، ومترجم كلامه هو إسحاق بن حنين المترجم الإسلامي المشهور .

وما ألطف الاعتراض على « أفلوطين » القائل بالنفس الواحدة لجميع الناس ، والرد على الاعتراض من أفلوطين نفسه . فإن هذا الفيلسوف الذي يعرفه المسلمون وتعرفه الفلسفة الإسلامية يقول بأن النفس الإنسانية لا تقبل التجزئة البتة ، فإذا اعترض عليه بأنه إذا كانت هناك نفس واحدة لجميع الناس فكيف يحدث أن يحس إنسان ما لا يحسه الآخر ، وأن ينفعل الواحد من الناس بما لا ينفعل به الآخر — إذا اعترض عليه بذلك أجاب بقوله : إن النفس واحدة في الناس ، ولكن الأفراد الذين يتركب الواحد منهم من نفس وبدن مختلفون . فإذا وجد شيء واحد في شيئين مختلفين اختلفت صفاته .

وهكذا لا يحرمنا هذا الكتاب من متع عقلية لذيذة ، والطفها — وهي منثورة مبعثرة في ثنايا الكتاب — أشبه بالواحات القليلة في صحراء تنقطع فيها الأنفاس ...

محمد عبد الغني حسن



فى مستهل شهر العسل ...

حديث فكاهة للكاتبة الأمريكية "Dorothy Parker"

ترجمة الأستاذ مبارك إبراهيم

قالت الكاتبة :

ضم ديوان عربة « البولمان » رجلاً وامرأة ، هما عروسان فى مستهل شهر العسل ، وبدأ العريس ، وهو فى بذلته الزرقاء الجديدة ، يضع الأمتعة فى أركان وفوق الديوان ، والقطار ينهب الأرض نهباً ، وكأنه حيوان من الجن ينفث الحمم ، ويقذف باللهب.

وكان قوام الأمتعة حقيبتين للثياب والمشتروات الأخرى ، ومع هذا فقد استغرق وضع هذه الأشياء الثلاثة ثماني دقائق ، وهو وقت طويل جداً ...

ثم جلس الرجل قبالة عروسه ، وكانت فى أتم زينتها ، إذا رأيتها حسبتها درة تتألق ، وكانت تتطلع من نافذة القطار وتحدق إلى الأفق وهى ذاهلة ، فلما جلس عريسها تركت النافذة والتقت عيناها بعينيه ، ثم بدأت ابتسامة كادت تكتمل لولا أنها قطعتها ، وبدأت تولى وجهها شطر كتفه الأيمن.

ثم بدأ الزوج الحديث فقال : وبعد !.

قالت العروس : وبعد !.

— ها نحن هنا !

— نعم ها نحن هنا ! وما دمنا هنا فأين نكون إذاً ؟.

— ألا تخبرينى : كيف يكون إحساس فتاة من الفتيات إذا تخيلت أنها أمست ثم أصبحت فإذا هى زوجة قد تخطاها الشباب ، وتقدمت بها السن ، واشتعل رأسها شيباً ؟.

— لقد شط بك الخيال فى توجيه هذا السؤال ، بل لم يحالفك الذوق الحسن ، وذلك لأنه لم يمض على زواجنا غير ثلاث ساعات ، أليس كذلك ؟.

فنظر الزوج إلى ساعة يده ، كأنه يريد أن يتحقق من الأمر قبل أن يحدد الوقت ، ثم قال : إن شئت الدقة فأعلمى أنه قد مضى على زواجنا ساعتان وست وعشرون دقيقة ...

فقالت الزوجة : يخيل إلىّ أن الوقت قد مر بطيئاً ... وإنى لأظن أن هذا راجع إلى أن النهار قد بدأ يقصر ، وأن الليل قد بدأ يطول ، وإنى لأعجب كيف تمر بخاطرى هذه الخواطر ، وأنا التى قد عشت دهراً لا أعد الليالى ...

وإنى لأعجب كذلك مما مر بى ليلة الزفاف ، فقد عشت من الكنيسة ، ثم خلعت ملابسى ، ثم رفاقى كل واحد عن حولى يجىء ، ثم تفرق المتفرجون ، وانفض الناس ، وطوى البساط.

وإنى لأعجب أيضاً كيف يفعل ذلك الناس كل يوم ...

هو : يفعلون ماذا ؟.

هى : أعنى يتزوجون ، وإنى ليسرح بى الخيال فأرى هذه الاحتفالات تقوم فى الصين وفى كل مكان ، وكأن الأمر سهل ، وكأن الخطب جد يسير.

— وماذا يعنيك من أمر الصين والصينيين ؟ من الخير لك أن تفكرى فى أشياء أخرى.

— إن الذى يعنينى أن الناس كلهم فى سائر بقاع

الأرض يتزوجون كل يوم ، وهم غافلون عما يجري به القدر ، وأكبر الظن أن كل مقبل على الزواج قد رسم لنفسه صورة ضاحكة للسعادة واضحة المعالم والحدود ، وإذا بتلك السعادة لا أثر لها ولا وجود .

هو : تعالى ! أليس هذا الكلام مما يستهل به شهر العسل ، وها نحن قد تزوجنا ، فلننعم ولنسعد !.

هي : حسناً ! ولكن قل لي هل حقاً أعجبك فستاني ؟.

— لقد كنت في الحفلة آية !.

— يسرني أن أسمع منك هذا كل السرور ، ولقد بدت « إيل » و « لوز » جميلتين حقاً ، أليس كذلك ؟.

— أقبل في بسمتك ، فإني أريد أن أسر إليك شيئاً ، ذلك أني رأيت — وأنا أنتظر قدومك في الكنيسة — هاتين الوصيفتين من وصيفاتك فأعجبت « بلوز » الإعجاب كله ، بل لقد أعجب بها كل من وقعت عينه عليها .

— أحقاً ما تقول ؟ أما أنا فرأيي عندي أن ثيابها وفستانها كانا جميلين ، أما هي فبدت متعبة أو كئيبة ، ولقد تحدث الناس في ذلك وأطالوا ، إذا أنا قلت لك : لا تنسوا أنه لم تبق اليوم فتاة في [illegible] السن ونضارة الشباب ، وذلك من أثر الهموم والقلق ، و« لوز » لا تستطيع أن تقول إن سنها لم تتجاوز الثالثة والعشرين ، ولكنها — والحق يقال — تجاوزت اليوم إلى السابعة والعشرين .

— ولكنها أيضاً — والحق يقال — كانت قبلة الأنظار ، بل كانت فتنة الناظرين .

— يسرني أن أسمع منك هذا الثناء ، ثم أريد أن أسمع رأيك في جمال « إيل » وملاحتها !.

— الحق أقول أني لم أنظر إليها !.

— أحقاً هذا ؟ وإنه لشيء إن صح ، وما كان لي أن أقول شيئاً في الثناء على أختي ، ولكني — ولا حياء في الحق — لم أر في حياتي من يشبهها ملاحة وجمالاً ، وإنها لتفيض وسامة ، وتفيض حسناً ، وهي قد برئت من الأثرة والأنانية ، وإنه ليسوءني أنك لا تنظر إلى أختي ، بل إن هذا ليحزنني !.

— بل إني لأجن بها جنوناً !.

— أرجو أن لا تظن أن تجاهلك إياها ينقص من قدرها ، إن قوماً كثيرين قد جنوا بها من قبل جنوناً .

والذي يحيطني الليلة هو أننا يوم نعود إلى بيتنا ، ويوم تستقر أمورنا سوف لا ترضى أنت عن زيارة أختي لنا ، وكأني بك أيضاً لا ترضى عن زيارة أحد من أهلي لنا .

ألا فاعلم أن في حرماني من زيارة أهلي خسارة لك أنت ، فلا تبالغ في الإعلاء من شأنك ، ولا تمش في الأرض مرحاً ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً .

— هذا شرود في القول ، فأنت تعرفين أني أحب أهلك كلهم ، ومنهم أبوك وأمك ، ومنهم الأحمق والكيس ، ومنهم الخطير والحقير ، فعلام هذه الضجة الكبرى يا من تمشي ؟ وماذا أغضبك مني ؟

ألا فاعلمي أن هذا الشهر هو عندي وعندك شهر العسل ، ولا يليق أن يبدأ شهر العسل بما يجعله شهراً للعلقم والحنظل ، وإني لأشفق اليوم ثائرة الأعصاب .

— إني آسفة على ما بدا مني من غضب ، إنه مجرد [illegible] ، وإنك لن تستطيع أن تلوم إنساناً على التفكير ، فتساعد على أن لا يكدر صفونا مكدر .

[illegible] تقول : إن طاقية قبعتي ، فهي تشتط على رأسي [illegible] ، وعلى ذكر قبعتي ، أراقتك هي ؟

— إنها تبدو واسعة فوق رأسك .

— أريد أن أسمع رأيك في القبعة ، أجميلة هي ؟

— أنا أعرف أنها من الطراز الحديث ، ولكنها تبدو واسعة ، وإني لأفضل تلك القبعة الزرقاء التي كنت تلبسينها .

— أحقاً هذا ؟ ما أجمل هذا القول وما أظرفه ! إنه أول شيء تقوله لي ، وقد بعدت عن أهلي وشط بي المزار ، أنك لا تحب القبعة التي ألبسها ، اذكر هذا جيداً ! واذكر أن أول كلمة توجهها إلي أني فاسدة الذوق في اختيار القبعات ...

— لم أقل هذا أبداً يا أعز الناس عندي .

— كأنك لا تعرف أن هذه القبعة قد كلفتني أكثر من عشرين ريالاً ، وأن تلك القبعة الزرقاء التي أعجبتك لم يزد ثمنها عن ثلاثة ريالات إلا قليلاً ، وكان عليك أن لا تتزوج فتاة لا تعجبك قبعاتها .

والآن قل لي : لماذا لم تتزوج لوز .. التي تحسن الظن

بائماً جمالها وحلاوتها . وبالتالي يحسن ذوقها في اختيار القبعات ؟ وإني لأعرف أنك يا مغرم مفتون . ذلك أن لسانك لم يفتر عن التحدث عنها برهة . وإنه لشيء عجيب جداً أن تحب إلى هذا الحد فتاة غريبة . وأنت مفتون بأخرى وهواك معها ! فلم لا تطلب يدها ؟ إني لواثقة أنها ترحب بهذا الطلب ، بل ترقص فرحاً . وإني لأتنبأ لك بالسعادة كلها إذا تزوجتها .

— أرجئي حمك يا فتاتي ! ما دمت قد بدأت حديث الزوجات والأزواج . فإني بدوري أسألك : لماذا لم تتزوجي « جو بروكس Joe Brooks » ؟.

— لست آسفة على ذلك ، ولكني أظنه ما كان يتهيز فرصة بعدي عن عشيرتي وأهلي ، ثم يمتاً بالقبح والذم في ذوقي وملابسي ، وما كان Joe Brooks يبالي بمسائلي أبداً . فإنه كان دائماً في جد مفترق ...

— لو كان حقاً مفتوناً بك لما توانى في إرسال هدية لك في يوم زواجك .

— لقد علمت يقيناً أنه كان مسافراً ، وهو لن يتوانى عند عودته أن يبعث كل شيء أطلبه من أثاث وورق .

— احسن ! إن هذا لن يكون ... وسوف أرى بعيني الناقدة بكل ما يرسله إليك من أثاث وورق ؟.

ولكن كيف عرفت أنه مسافر فهل تبادلنا الرسائل ؟.

— إني لأظن أن لأصحاب الحق في مراسلتي ، ولم أسمع أن قانوناً قد صدر يمنع هذا .

— إني لن أسمح لزوجتي أن تراسل يا ما جو الأحقر .

— ليس Joe يا ما جو الأحقيراً . إن له راتباً كبيراً ، وهو رجل له مقامه ومكانته .. (وبعد) فكيف تجيز لنفسك الكلام عن Joe Brooks ولا أجيز لنفسي الكلام عن صاحبتك « لورا » .

— لو أني لم أكن في حديثي عنها سيء القصد والنية . وما كان حديثي عنها إلا وسيلة لإضحاكك وإدخال السرور في قلبك . ثم اعلمي أننا عما قليل سنبلغ « نيويورك » وننزل في أحد فنادقها ، وعندما تفرغين من كتابة خطاباتك سأشتري لك علبة من الحلوى أو كيساً من الحمص ...

— ماذا تقول ؟.

— أريد أن أقول إني لن أضايقك أبداً ..

— أتستطيع أنت يا زوجي ونحن زوجان ، هذا شيء محال .

فلما وصلا إلى الفندق قال لها في مداعبة : أترين واجباً محتوماً أن تكتبي الخطابات الليلة ؟.

— كلا ! ولست أرى بأساً في التأجيل إلى غد .

ثم ساد الصمت بينهما ، ثم استأنف الزوج الحديث بقوله : لن يدب الخلاف بيننا بعد اليوم .

فأجابته : بل لن يدب الخلاف بيننا أبداً ! ولست أدري ماذا دهاني حتى قلت ما قلته .

إن فترة العراك التي مرت بي كانت كالكابوس الثقيل . (وبعد) فلنذكر أننا في مستهل شهر العسل .

فأجابها مردداً قولها : ثم لنذكر أننا في مستهل شهر العسل ...

(عن الإنجليزية) مبارك إبراهيم

من أدب الواقع :

لا تيأسي

لا تيأسي من طلوع الفجر وانتظري
فمن قريب سيجلو ظلمة الكَدَرِ

مهما تطاول ليلُ البؤس إن له
فجراً يداعب جفن الليالي الشُّعُرِ

لا تيأسي – يا ملاكي – وابسمي وثقي
بأن مستقبلاً يوفي لمنتظرِ

إياك أن تنظري الدنيا بواحدةٍ
وتغمضي عينكِ الأخرى عن النظرِ

فلا تبالي لمأوى الجبال، ولا
ذكرى حنين صدى الصخر والمطرِ

كلٌّ يسير إلى أقداره حتماً
وأنتِ فابتسمي للماء وانتظري

أتذكرين خلال العام كم حدثت
أزماتُ قلبك [illegible]

إذ كان زورقنا في جوف مضطربٍ
لم يبق عزماً لدى [illegible]

وكبرت العاصفاتُ الموج تقذفنا
إلى دمارٍ فظيعٍ سالع الأثرِ

عبرتُها مطمئناً غير مختلفٍ
واجتزتها بسلامٍ غير منكسرِ

وكنتِ باكيةً، تمساءً، وجاهدةً
يا بوافيك هذا اليأس من فكرِ!!

أتذكرين؟! فما الذكرى بنافعةٍ
إن لم تكوني من الذكرى على عِبَرِ

لا تيأسي فرداء اليأس مهلكةٌ
لكنّ متّشح اليأس موزّرِ

هذا الشتاء الذي مرّت بنا بردُه
يتلو خطاه ربيعٌ رائعُ الزهرِ

لكن من لم يكن في الحقل ذا عمل
لم يحظ منه بطيب الظلّ والثمرِ

(العراق) علي جليل الوردي

الغلاء

غلا الغلاء وعمّا / دى في الغلاء واستمر
وصار سيفاً مُسلطاً / يُزهقُ أرواحَ البشر
وصار جَهلاً أن تحـ / ـه الشداة والخطر
وحاكماً قد استبـد / بالرعايا وتجبّر
أمّا له في مصرع الـ / ـبغي هدى أو مزدجر؟
أرى الغلاء فرصةً / لزمرٍ يسبقُ الظفر
جاوزوا كل شاهقٍ / تبلغ ذُراها الفِكَر
يأيها المشفق الحيا / ة أين أين المستقر؟
حرّمتهن طاقات الحـ / ـياة ووحشة السفر
وصورة الجنة لم / يُلفه حيث الوطر
كأن الجنة ما كا / ن بأمره الكونُ الخضر
تحلو في واحة الـ / ـقلب مثلُ من حضر
والنطفُ أشكاله / أزماً وجسوءاً وتجهر
[illegible] / برٌ في هائم الشجر
[illegible] يجري / أو يوم البعد ابتدر
[illegible] / روضاً أرضاً وزهر
تراه من قسوة / يكاد يُطلق الحجر!
يكاد يعدو الشحي / ـل محكماً إذا أمر!
واليوم ولّى مجده / ومن مكانه انحدر
وسحره القديم قد / زال سناه واندثر
سال أراه كلما / مس الغناية منتشر؟
وكلما حث إلى / نشاطه أخطأ الظفر!
لا يرتجي بالسعي إلى / جهدٍ تولى وخسر
والدهر من عاداته / يُديل ممن له خطر!
يرى الفساد في الوجـ / ـود بعض أوهام البشر
إن الحياة عبرةٌ / وهو بها بعض العبر!
وبلْ لمن قد أوقدوا الـ / ـحرب وأطلقوا الشرر
وسيّروا الجنة في الـ / ـأرض لهباً وشرر
وأسكنوا شبابها الـ / ـكوارثَ أحداق الخطر

مشوا علينا بالحراب   يهدمون ما نعمر
ومنجل الحرب الرهيـ   ـب لبني يُشقى أو يذر !
ثم جرحوا جسم الحيا   ة وطووا مجد الدهر
ومشوا الأيام رعبـ   ـاً والنفوس بالخطر
وشروا الأرض بيو   م بالبوار مُنتظر
وشروا هذا الفلا   ء وهو موتٌ مختصر
هل يُستطابُ العيش وال   موت على الناس انتشر ؟
رباه إن الركب ضلّ   عن هداه والعبر
فلن يستفيقاً الا   بتلك أحكام القدر
فلا تدعه يصطلي   في الأرض نيران سقر !
فطالما حياك الورى   وجاد رزق وثمر !

محمد الهادي [illegible]

لقاء ...

يا قلب صبراً ! فهذا بعض ما تكن
[illegible]
نحن على أن يشتد في [illegible]
والبلبلُ [illegible]

***

قابلتها في أصيل والفؤاد شجٍ
والطير في دعةٍ ، والزهر لم ينم
هيفاء تأسر رائيها .. وترفعه
إلى سماء من الآلاء والنعم
والصدر يبرز مغتراً بما جمعت
مولاته من سمو الفضل والكرم
والعود رطبٌ ، رواه في منابته
فيضٌ من الصبح أو فيضٌ من الديم
نقشُ الإعجاب لما طاف الطرف به
إلا شفته يد الأنداء والنسم

***

لما تصافحت الأيدي شعرتُ بها
تستمهل العهد ، عهداً غير منفصم
ومسّني قبسٌ من حبها ، وهجٌ
من كفها ، دافقٌ إشعاعه يدمي
القلبَ يغمره من ضوءٍ ومن نغمِ
والعين يكمن فيها بالغ الألم
تبدو الخوارق في أهدابها ألقاً
يسمو بها عن خيال الشك والتهم
ثم انحنينا وراحت تشتكي حرقاً
بانت مرارتها لاذعة .. جمعت
لها لغاتٌ كأن المزن أنطقها
قيثارةٌ فاتنةٌ سحرية النغم

***

حتى انتهت قالت : أنا أنشودةٌ عبرت
تشدو بوادي الأسى والوجد والسقم
أنا الغناء يجري من منابعها
نابعة بالقوى الظالم الهرم
ثارت عليها أرماد الفقد فاحترقت
وأصبحت نهبةً للجدب والعدم !
يا توأم الروح ما يحدثه تقلق
حلمٌ تضرب في داجٍ من الظُّلَمِ
أثرت في النفس داءً كنت أكتمه
وبعثت ذكرى سرت مشبوبة الضرم
حتى غدوتك يا عشرية شرقت
بالحزن حزناً لم تعتب ولم تلم
إلا رفيقاً يا لباقة .. ينعشها
لم دفين ، وجرح غير ملتئم
أما خيالك فما زالت لواعجه
في وحدتي خاطراً يوحي إلى قلمي

علي بيرم